حنا مينة

من هو نصف المجنون هذا؟
إنه نصير المرأة... ويقبل
التوبة ضارعاً!

حنا مينه

عاهرة ونصف مجنون

رواية

دار الآداب - بيروت

ـ ١ ـ

في الزمن غير المسطور في كتاب التاريخ، وترجيحه «تؤلّف ولا تؤلّفان» ومكانه ما بين الشعرى والمرّيخ، وُجدتْ عاهرة لاانتمائيّة، لها فخذان بالغتا الروعة، إحداهما في القارّة العجوز، ذات الأصالة والحضارة، وثانيتُهما في بلد ضخم الصناعة فقير الحضارة. ولهذه العاهرة نهدان كاعبان، لهما حلمتان كمنقار الحجل، موزّعتان ما بين غرب وشرق، وسرّة ممتجّة، فيها «البابليّ المعتّق» خيل الصبا، سقى الله أيّامه، يعربد من سكر، وخمرته، في الشبه، تذكّر بالماء المتحوّل خمرًا، الذي أدار رؤوس المتّكئين في عرس قانا الجليل.

كانت لورانس شعلول مثقّفة ثقافة جورج صاند. ولها، في الغلمة، نداءُ الأفعى إلى وليمة السمّ، ومنه الرمز لدى الصيادلة، بعد أن تباركت بالقول: «كونوا وَدُعاء كالحمام حُكمَاء كالحيّات». ثم لها، أي لورانس شعلول، السبقُ في سبر غور التفّاحة المباركة، والإدراك

المبكّر لفوائدها في الارتواء بعد الظمأ، وتوالي الذراري في الإنجاب، والرَفَث فحيحًا في سرير اللّذّة، وانتصار الحياة على الموت في «نفي النفي».

وفي اللقاء، عشقًا، كان بين فايز غضنفر ولورانس شعلول صراع خفيّ، لا يستعلن سوى في النظرات، صراع بين قبيلتين، أزلاً أبدًا، الغالب فيه من يحبّ أكثر ومن يحبّ أقلّ، ولم تكن هذه المعادلة الطفليّة في النشوء، إلاّ نتاج ما سمعه، ما عاشه، ما رآه، كل منهما من قلق، من سهر، من كره للأبوين اللذين كانا يمارسان الجنس في الغرفة الواحدة، الفقيرة، التي لا تتّسع إلاّ إلى سرير خشبيّ، تنام فيها البنت لورانس إلى جانب والدتها، وينام فتى مراهق وفتاتان تقتربان من سنّ الرشد، على فراش فوق بساط، ممدود بشكل ملاصق للسرير، وكلّهم إخوة أشقّاء، منهم من أدركه النعاس، فغالبه هنيهات قبل الاستسلام له، وقبل أن تبدأ لعبة الجنس، ومنهم من استيقظ، مدفوعًا بطفليّته، لسماع ما تلتقطه الأذن المرهفة، من كلمات لابدّ منها بين الرجل والمرأة، وهما في بدء الجماع، أو وسطه، أو منتهاه، دون أخذ الحيطة اللازمة، لتجنيب الأولاد بلوى المعاناة

القاسية، جرّاء الإصغاء المفروض، بين جدران الغرفة الواحدة، الضيّقة نسبيًّا!

حظّ الطفلة لورانس كان الأسوأ، الأبغض، الأشدّ إيلامًا وتأثيرًا، لأنّها تنام، كعادتها كل ليلة، إلى جانب أمّها مردوش. والأبّ الجاهل فطيّم، لم يكن ينام إلى جانب زوجته عادة، بل على فراش قرب عتبة الغرفة؛ وفي الأسبوع مرّة أو مرّتين، يعلن أمام الجميع أنّه سينام في السرير مع زوجته، وبذلك يثير الغرائز الجنسيّة في أولاده، كأنّما يبثّ في سرائرهم، الرّغبة الشهّاء في الإصغاء إلى أمتع اللّحظات في هذا الوجود!

الساعة العاشرة ليلاً. الضوء في قميص الظلمة، الغرفة البائسة، ذات الجدران العارية، يسودها الصمت، إلاّ من نحنحة، أو تقلّب في فراش، أو إزاحة الغطاء في جوّ الصيف اللاّهب، مع كتم شديد للأنفاس، بانتظار حركة الأب والأمّ، والوشوشات التي تلي، والكلمات التي ستُقال، عند الولوج، أو قبله، في هذا الجوّ المكهرب، الضاغط على الصدور، مع ارتفاع فتيل الأنا، في الترقّب الحادّ للذين فاتهم زائر النوم، وسيطر عليهم القلق، كأنّما هم على بساط ريح رهواء،

يتأرجحون في متاهة فضاء شاسع، فيه لذاذات معجوقة بكل المشاعر الخسيسة، الدنيئة، المعذّبة، المتشوّقة لسماع حفيف الثياب عند الأمّ، وهي تخلعها على كره أو رضى، لكنّها تخلعها ليلة الخميس، وفيها الإنجاز الأكبر، عندما تنداح بقعة الدم على الشرشف الأبيض، و«الزغاريد فقد جنّ الإباء!» وارتاح الأهل الذين يسعدهم أنّ البكارة قد فُضَّت أخيرًا!

هنا الأمر يختلف، لكنّ اللّعبة ذاتها! الإيلاج! متى أيّتها التي تنام على ظهرها، تنقادين إلى ما هو مطلوب منك؟ ومتى إليها الذي من فوق، تنهي الأمر وتسعل كعادتك بعد القذف؟ وإلام نرتهن للسمع المشرّع، وفيه الأحاسيس متضاربة، بين هناءة ونكد، بين رغبات مسعورة، وأخرى شديدة الإرهاق، تتشوّف بدورها بدوران الماء في الأصلاب الملتهبة، ثم الراحة بعد الاغتلام، مرّة ومرّة.. أو مرّات عديدة، حسب اليسر والعسر؟

قالت الأمّ بصوت فيه بحّة الكره:

ـ نمتم يا بنات؟

ـ ...

ـ ردّوا الغطاء إذًا.

ـ ...

ـ قال الأبّ فطيِّم:

ـ ناموا وشبعوا «نوم»!

ـ لا! لا تستعجل.. اللّعنة..

قاطعها:

ـ يا عاهرة.. قلت لك لا حسّ ولا حسيس.. صرنا في نصف الليل.. خائفة من أيّ شيء؟ من..

ـ سوّد الله وجهك.. الحمار معه مثلك!

ـ والحمارة معها مثلك يا عايبة.. طلعت روحي.. خلّصيني.. خلّصيني..

ـ انتظر.. سامع أم أطرش!؟ اتركني أبعد البنت الصغيرة عنّي..

ـ البنت في سابع نوم..

ـ وأنت في سابع جهنّم.. تمهّل.. العمى! انقطع صبرك!؟

ـ انقطع من زمان.. انقطع يا بنت الكلب!

ـ لا تكمّل وإلاّ رفستك برجلي.. فاهم؟ أنت، في هذه الشغلة على نار... نار تحرقك إن شاء الله.. لا ترفع صوتك.. الأولاد..

ـ قلت لك الأولاد ناموا.. والبنت الصغيرة لا تفهم في هذه الأمور بعد.. اعطني شفتيك..

ـ لكن لا تعضّ.. لا تعضّ وإلاّ فضحتك.. تركت السرير وهربت خارج الغرفة.. رائحة العرق قتلتني.. قلت لك ألف مرّة: لا تشرب عندما تريد الاقتراب منّي.. هذا الزقّوم يجعل رائحتك مثل الجيفة.. سمعت!؟ أين الشقفة؟

ـ تحتك!

ـ هذه بعرض الإصبعين..

ـ ما وجدت غيرها.. على أيّ شيء تخافين؟ هذه، على كل حال، من شغل المرَة لا الرجل.. افتحي.. افتحي أكثر..

ـ لمن أفتح؟ لهذا الشرطوط.. تفو على شرف كل الرجال أمثالك..

ـ يا قحبة.. نسيت كم..

ـ لم أنسَ.. أتعذّب معك حتى الموت..

ـ من اللّذّة..

ـ من القرف..

ـ لأنّك صرت لغيري يا عايبة!

ـ اخجل يا سافل.. أنا امرأة شريفة.. لا خائنة مثلك.. خلّصني.. قلت لك خلّصني بسرعة.. الله لا يوفّقك.. البنت.. انتبه! البنت..

وكانت البنت لورانس، تسمع ما يجري بشكل مبهم، بعض الكلمات المعروفة بأسمائها، تحبس أنفاسها قدر المستطاع، تتعذّب، تحبّ أمّها، تكره والدها، تريده أن يموت، أن يكفّ عن النوم مع أمّها، لا تعرف سبب هذه الشتائم البذيئة، المتبادلة، لا تعير اهتمامًا لضيق الغرفة، لنوم أخيها أو أختيها، تفضّل النوم في السرير، إلى جانب أمّها، وعندما تنتهي المعركة بين والديها، تضع يدها في أسفل بطنها، تحسّ، على نحوٍ ما، أنّ هذه النقطة، في أسفل البطن، هي التي كان يجري فيها أمر

غريب، وأنّ والدها يقصده بالذّات، وأنّ اللّغة لا تساعدها على قول ما تريد لأمّها، سائلة أو مستفسرة، بهذا الخصوص، وأنّ دافعًا عدوانيًّا يتكرّر، كلّما قال والدها «اللّيلة سأنام على السرير» وأنّ هذا الدافع العدوانيّ فيه رغبة، لذّة، لا تريدها الأمّ، ويصرّ عليها الأب، فلماذا؟ وما الفائدة منها؟ وكيف أنّ المعركة بينهما تصبح، في النهاية، مريحة، بدليل أنّهما في الصباح، لا يشتم أحدهما الآخر، وأنّهما يشربان القهوة ويدخّنان، ولا يذكر أيّ منهما في النّهار، ما كان يقوله للآخر في الليل!؟

إنّ الطفلة التي كانت تتألّم ممّا يجري بين والديها، ستحمل ذكرى هذا الذي كان يجري في مراهقتها، وصباها، ونضج أنوثتها، وتجد أنّ العدوانيّة، مدفوعة بالنّشوة الجنسيّة، تكفّ عن أن تكون عدوانيّة، وأنّها هي، لورانس شعلول، من حقّها، وباندفاع آنيّ، أن توغل في طلب اللّذاذات، مع رجل وآخر وآخر، بالزّواج وغيره، وأنّ فجورها مبرّر تمامًا، لأنّه حقّ مكتسب، مثلما كان لوالدتها في صباها، ولكل امرأة في هذا الصبا، وأنّ الاختراق، بين الذكر والأنثى، اختراق فيه

متعة الجسد، وفيه التناسل، كقانون طبيعيّ، مادامت المرأة انتسلت من ضلع الرجل، بإرادة الباري سبحانه وتعالى، لتكون لعبة هذا الرجل، وشريكته في الكفاح على الأرض، بعد هبوط آدم وحوّاء من السماء، إثر تذوّق التفّاحة الأولى.

ولكنّ الحقّ على من؟ على الرجل؟ لا! على المرأة؟ لا! على الأولاد؟ لا أيضًا! مشكلة فعلاً، فإذا قلنا الحقّ على الفقر، فكأنّنا لم نقل شيئًا، في الأمثال أنّ البرد سبب كل علّة، هذا صحيح إلى حدّ ما، إلاّ أنّ الأصحّ هو الفقر، فالأغنياء لا يرتجفون من البرد شتاء، ولا يكتوون بالحرّ صيفًا، إنّهم يملكون المال، ومادام المال موجودًا، فالانتصار على القرّ والحرّ من البدهيّات. إنّنا في الزمن الرديء، والبشر أردياء لسبب بسيط، كونهم نتاج تاريخهم الاجتماعي، ومن النافل، المكروه، الممجوج أنّ نعظهم، فقد بشموا من الوعظ، وما ننفكّ ننهال عليهم بالمواعظ، وسئموا من دعوتهم إلى التحلّي بالصبر، حتى صاروا يلعنون أيّوب، الصابر الأكبر، واقعًا أو مجازًا، والذين فبركوا الأمثال، ودسّوا بينها أمثالهم الخبيثة، فبركوا، أيضًا، الأساطير، ودسّوا بينها

أساطيرهم ذات المحتوى الضارّ، المغلّف بالكذب المتقن، أو حتى الكذب الفاضح، وقدْوتهم في ذلك غوبلز!

لكنّ البنت الصغيرة، التي لا تعرف الخير والشرّ بعد، على شيء من الحيرة، لماذا يتعارك والداها على هذا النحو؟ الأم التي تنام هذه الطفلة إلى جانبها، وأحيانًا في حضنها، لِمَ تفعل ذلك هذه اللّيلة؟ لكنّها أيقظتها عندما أرادت إبعادها، قال الأب: «ابعدي البنت حتى أستطيع...» وقالت الأمّ: «إذا لم أبعدها برفق استيقظت.. ابتعد أنت عنّي.. آخ يا سافل، يا كافر، أنا شبه عارية، وبدل أن تمسّد فخذي تقرصه، كيف أفعل إذا رأت البنات جسمي والبقع الزرق عليه؟ بماذا أفسّر الأمر؟ بأنّك كنت تركبني؟ بأنّك كنت تقضي حاجتك معي؟ اللّعنة يا عرص!» وقال الأب: «أنا عرص يا قحبة!؟ خذي إذًا منّي بعد اليوم!» «تهدّدني!؟» «أنا لا أهدّدك، العمى! أنت زوجتي أم لا!؟» «وإذا كنت زوجتك؟» «أفعل فيها ما أريد.. لا عيب في الحلال، سمعتِ؟ سمعتِ وإلاّ أجعلك تسمعين بالقوّة؟ على المرأة أن تطيع زوجها، أن تتعرّى تمامًا، بالشكل الذي

يريد، وفي الوقت الذي يريد.. وإلاّ لماذا هي زوجته!؟ لماذا خُلق هذا لهذا؟ وكيف كنتِ، في أوّل زواجنا، تفحين كالحيّة وأنت تحتي؟ كنت تموتين من اللّذّة، تطلبينها بنفسك، تتشهّين من النّهار، وتصرّين على فعلها حتى في النّهار أحيانًا، وكنت لا أبخل عليك، أرفع رجليك وأعطيك حتى ترضي، حتى ترفعي يديك وتقولي يكفي، دون أن تهتمّي إذا تبلّل الشرشف، أو تبقّع الفراش، أو سمع أهل الله كلّهم. إنّنا نفعل ما سمح الله به، ما أجازه الشرع، ما فعلته حوّاء وآدم قبلنا، ما لذّة التفاحة إذًا حين وحين وحين.. فكيف تغيّر كل شيء الآن!؟» أجابت الأمّ: «كان وكان وكان.. لكنّنا الآن كبرنا.. صار لنا أولاد، صار الأولاد يسمعون، ألا تتّقي الله في الأولاد؟» قال الأب: «أنا أتّقي الله أكثر منك، أخافه جدًّا، ولكن ماذا أفعل بنفسي؟ الفقر، يا حرمة، الفقر، لو كان لنا أكثر من غرفة، كنت أنام معك كل ليلة، ننام في فراش واحد، على سرير واحد، لا نخاف أن يسمع الأولاد، لأنّهم في غرفتهم ونحن في غرفتنا، وكان كل شيء على أحسن ما يكون، نتكلّم بحرّيّة، بصوت عالٍ، بغير وشوشة، من الأذن للأذن، بغير همس، بغير خوف... تصدّقين؟ صرت أشتهي رؤيتك

وأنت عارية.. عارية كما يوم زواجنا، عارية بجسمك الأبيض، الفتيّ، النقيّ، وصدرك، وعنقك، وكل مفاتنك.. لكن ماذا نفعل؟ قولي: «ماذا نفعل؟» نجدف على الفقر!؟ الغنى من الله، والفقر من الله، والله بكل شيء عليم.. نحن طوع ما يأمرنا به، وما كتبه لنا» قالت الأم: «لولا الأولاد يا فطيّم لولا الأولاد!» أجاب بحدّة: «دين الأولاد يا مردوش.. لماذا خلّفنا الأولاد ونحن فقراء؟ على الفقير ألاّ ينجب، أن يبقى بلا عقب.. أبعدتِ البنت؟ تزحزحي عنها قليلاً.. هي ساعة وتنقضي!» ردّت الأمّ: «ساعة!؟ خمس دقائق! قل عشر دقائق.. قل ربع ساعة.. ألا يكفيك ربع ساعة؟» «بعد كل هذا الصبر!؟ بعد كل هذا الصبر نسلقها مثل بيضة، وبسرعة البرق!؟» «الحقّ عليك.. أذني وجعتني من قدر ما وشّيت فيها، هي ديباجة؟» «الديباجة كانت مقصودة، حتى ينام الأولاد!» «لا تجعلني أكفر! الأولاد ما ناموا، خذها منّي، الأولاد، والبنت الكبيرة خاصّة، سمعوا كل شيء.. ديباجتك السخيفة طالت وطالت، أعرف أكثر منك في هذه المسألة.. السمع لذّة.. كنت صغيرة وأعرف، لذّة الإنصات ما بعدها لذّة.. كنتُ.. قرّب أذنك، أقذف مرّة ومرّة قبل الوالدين، أنا والجارات

نتصارح، يقول بعضنا لبعض بصراحة، قالت واحدة: كنت أضع طرف اللّحاف في فمي وأنا أخلص، حتى لا اشهق من اللّذّة.. هذا الذي يصير، وما يصير يصير، وأنت من أوّل اللّيل ترغي وترغي.. أنت لا تفكّر بالبنت، أنت لا تفكّر إلاّ بنفسك، بلذّتك الحيوانيّة، حرام عليك، اشفق يا عديم الشفقة، فكّر بالبنت الكبيرة، وحتى بأولادك الصغار، كان الأفضل أن تنام في السرير، معي، كل يوم، حتى تضيع المسألة، هل تفهم كلامي ومعناه، أم أذن من طين وأذن من عجين!؟» «لا! لا! أفهم، ولكنّ الحقّ على من؟ عليكِ، ترفضين أن أنام معك كل ليلة» «حتى لا تفعلها كل ليلة!» «المربح معك لو نمت» «لا أريد هذا المربح، لا أريده، قلت لك، مئة مرّة، اتركني بحالي، كفّ بلاك عنّي.. كفّ عن تعذيبي وتعذيب أولادي، إنّهم، وحقّ كل ملك، يسمعوننا، اترك بزّي.. لا تضغط عليه بقوّة.. ماذا تفعل؟» «أفعل الذي يفعله الذكر مع الأنثى.. هذا حقّي!» «حقّك في غير هذه الظروف، عندما نكون أغنياء، وفي غرفة مستقلّة، ماذا بك؟

قال الأب:

ـ لا أريد والسلام!

ـ كيف لا تريد!؟ وأنا؟

ـ إلى جهنّم أنت وأولادك وذريّتك كلّها!

ـ والسبب!؟

ـ القرف!

ـ بعد كل الذي قلت، وبعد كل الذي حدث!؟

ـ نعم! بعد كل الذي جرى!

ـ وماذا جرى؟

ـ لا شيء!

ونزل الأب عن السرير وهو يكظم غيظه!

ـ ٢ ـ

أنا لورانس شعلول التي، في زمن أسنان الحليب، كانت تنام لصق أمّها، فتهنأ لهناءتها، وتأسف لأسفها، وتلعن الفقر مثلها، بغير إدراك تامّ له، وغير وعيٍ بنتائجه كلّها. قرأتُ في الكتب عن حال العشّاقين كما تغنّي فيروز، واستوقفني ما قاله أبو ذرّ الغفاري، عن الجوع والخروج بالسيف دفعًا لأذاه، واستوعبتُ، حين الشراب صرفا أو ممزوجًا، قول عمر أبو ريشة «كومض الشوق في أحداق سكران» وتوقّفت طويلاً مفكّرةً، متأمّلةً بيته الشعري المشهور «لا يُلام الذئب في عدوانه إن يكُ الراعي عدوّ الغنم» كل هذا، أو بعضه على الأقلّ، صار لديّ، أو على حدّ فهمي، واضحًا، أو قريبًا من الوضوح، لكن علاقة الجنس بالفقر، في الغرفة الواحدة، بقي مستغلقًا على فهمي، إلى أن سمعت من والديّ أنّ الفقر يغتال لذّة الجماع، فيجعلها نقمة بدل النعمة! طبعًا هما لم يقولا هذا تمامًا، توقّفا عنده فقط،

لكنّهما لم يسبرا غوره، ولم يدركا أنّ جوع البطن أخفّ وطأة من جوع الجسد، فهذا، حين يعوي، كذئب ساغب في متاهة الثلج، خليق بالخروج لأجله بحدّ السيف، كما عند الغفاري، طيّب الله ثراه، وطيّبه ثانية وثالثة ورابعة، لأنّ أبا ذرّ الغفاري كان شموليًّا، والذنب ذنبنا إذا لم ندرك شموليّته، فكلامه عن الجائع الذي يخرج بالسيف على من جوّعه، لم يكن محصورًا أو مقصورًا على البطن، إنّما تجاوزه إلى ما هو في أسفل البطن، عند الأنثى والذكر، وقديمًا كان الكونفوشيّون، أي أتباع الديانة الكونفوشيّة، يرون إلى الرهبنة على أنّها تضحية من نوع آخر، أرقى، أسمى، أوفر إنسانيّة، فنذروا الرهبنة لإمتاع الذين تَحُول عاهاتهم البدنيّة بينهم وبين المتعة الجنسيّة، وهذا ما نعبّر عنه اليوم بحكاية الشحّاد الذي لا يطلب رغيفًا بل قبلة: «دخيل الله» من الجميلة التي فتحت له الباب وناولته كسرة خبز.

رجال القانون يعتمدون الفذلكة توطئة لما يريدون قوله، ويبدأون هذه العادة، موجبة أم نافلة، قد استهوتني، فأمعنت في قول مسفٍّ، بدل أن أهجم على موضوعي فأنكحه مباشرة... نعم أنكحه، لأنّ النكاح

الولوج، دخول، والدخول في الموضوع كالدخول في غيره، والزمخشري، بشبش المولى طوبته، أجاز لنا هذا المنفسح في تشقيق الكلمات المترادفة، لا المتقاطعة كما يفعل العجز في هذا الزمن!

إنّ كلّيّة الآداب لا تخرّج أدباء، وإلاّ لامتلأت دنيانا بأحالة الهواء هؤلاء، ولكنّني كخرّيجة هذه الكلّيّة، أرغب في إثبات جدارتي الأدبيّة، وسعة اطّلاعي على ما أرى وأسمع، ومن هذا الذي سمعته أنّ الراقصة المشهورة فيفي عبدو كانت في النباهة أوفر حظًّا من الروائي نجيب محفوظ، قبل فوزه بجائزة نوبل، أو بعدها، لا أدري، فأوقفت سيّارتها الفارهة قصاده وهو يمشي على كورنيش النيل العظيم، وقالت له لافضّ فوك «أنظر يا أستاذ نجيب ماذا صنع بك الأدب، وما صنع بي سوء الأدب» أو «قلّة الأدب» إذا أردنا الدقّة في نقل المأثور من الكلام!

غير أنّني، أنا لورانس شعْلول، مولعة، منذ ما قبل البلوغ، بقلّة الأدب هذه، كونها هوايتي المفضّلة، ومصدر ثروتي المتنامية، ومثار رغباتي الجنسيّة الآثمة، فالإثم، هنا، هو الإثم، وألتذّ كثيرًا بتسمية الأشياء

بأسمائها، لأنّ النواسي العظيم قال: «وداوني بالتي كانت هي الداء» وداء الجنس دائي، ورثته عن أبويّ في الغرفة الوحيدة، الفقيرة، التي كانت تنام فيها العائلة كلّها، وأنا الطفلة لِصْق خاصرة أمّي التي لا يعرف والدي كيف يتستّر وهو يركبها، لأنّه على شكّ ديكارتي في أنّ الأولاد ناموا، وشكّه في محلّه تمامًا لأنّ الأولاد، وأنا منهم، لم يناموا بعد، والأمّ تحته تتعذّب، وأنا لصق خاصرتها أتعذّب، وأخي وأختيّ يتعذّبون، والسبب معروف، نسبته إلى الإملاق، أو الإدقاع، أو العوز، أو ما شئت من هذه المترادفات التي أتحفنا، وأوصانا، وحضّنا على الولوع بها علاّمتنا بديع الزمان الهمذاني!

كنت صغيرة بعد، في الثانية عشرة من عمري، عندما تكسّبت، بتلك النقطة في أسفل بطني، رغيف الإثم الذي أتاح لي، في مقبل الأيّام، دخول كلِّيَّة الآداب، والتدرّج بعد ذلك في طلب المعرفة، حتى أصبحت كاتبة معروفة، مشهورة، أتصيّد رسائل الرجال إليّ، وأنشرها إثارة للفضائح، نكاية بالفضيلة وأربابها من كل الأصناف.

أرجوكم. لا تسألوا، أو تتساءلوا، من أنا بين

الكاتبات العربيّات المشهورات، في طول هذا الوطن العربي وعرضه، فلورانس شعلول هي كل هؤلاء الكاتبات، وهي فوق ذلك أو تحته، لا فرق، ليست واحدة من كاتباتنا المبجّلات، المنحوتات نحتًا، أو المقولبات قولبة، أو المهندمات قامة فارعة، منحة من ربّ العالمين، واسمحوا لي، مرّة واحدة، أن أقلّد المشاهير من كتّابنا العرب، فأعتذر عن ذكر الأسماء، تجنّبًا للقيل والقال، محتفظةً باسم الكاتبة العربيّة التي أحبّ، وأجلّ، وأقدّر موهبتها، لا لشيء سوى أنّها، ذات عام، تكرّمت فبعثت إليّ برسالة معدودة الكلمات، فأجبتها برسالة معدودة الكلمات أيضًا، على مبدأ المقايضة بالمثل، أو أخذًا بالقول المأثور «خير الكلام ما قلّ ودلّ»، وسبب الإعجاب بهذه الكاتبة الرائعة، أنّها تكتب بإخلاص لمهنة الحرف، وتتأنّق في ديباجتها طبعًا، وتجيد عدّة لغات، لكنّها لم تذكر، في أيّما من مقالاتها، أنّها تجيد غير اللغة العربيّة، وهذا تواضع نفتقده، حقًّا وصدقًا، هذه الأيّام، نفتقده قياسًا، ففي إعلان مأجور، وأجر الإعلان غالٍ في هذا الزمن، شكر أحدهم الذين عالجوه من مرض أَلَمّ به، ونقش الإعلان بهذه الكلمة الأثيرة لديه: «الروائي فلان يشكر.. إلخ»

ويعرف القرّاء أنّه روائي، أو أنّه يطمح أن يكون روائيًّا، فلا لزوم للصفة الدالّة على عبقريّة الشاكر والمشكور معًا، والمسألة، هنا، لزوم ما لا يلزم، رغم أنف فيلسوف المعرّة، واللزوم هو وضع حرف «لـ» أمام الاسم، حتى لم يبقَ اسم بغير هذا الحرف من المحيط إلى الخليج، وقد راعنا الدهر ببلوى أخرى، أشدّ إيلامًا، هي إثبات الحروف الأجنبيّة تحت الاسم الكريم، كي يعرف القرّاء، ويهتمّوا، ويراسلوا صاحب الاسم عبر موقعه على الإنترنت، أو النت اختصارًا وإيجازًا.

قالت السيّدة فيروز، سفيرتنا إلى النجوم، حسب الكبير الكبير سعيد عقل، أو غنّت، وهو الأصحّ: «كتبنا وما كتبنا، ويا خسارة ما كتبنا، كتبنا ميّة مكتوب، ولهلّق ما جاوبنا» ويبدو أنّ بعض الرجال، ومن كل الأصناف والأشكال، وكذلك المقاسات والقامات، مولعون بكتابة الرسائل إلى هذه أو تلك من كاتباتنا الشهيرات، دون أن يفطنوا، وسوء الظنّ من حسن الفطن، أنّ هذه الرسائل ستنشر، أو بدقّة الكلمة، قد تنشر في كذا من أعوام المجرّة، فتكون الفضيحة ذات جلاجل.

قال كاتب فرنسي: «لو أفصحنا عن عشر أعشار ما يدور في أذهان الناس، لأثرنا فضائح لا نهاية لها» ولورانس شعلول على خلاف مع رأي هذا الكاتب الفرنسي، كونها ضحيّة الغرفة الفقيرة التي كانت تؤوي عائلتها، فوالدها ذكر، وأمّها أنثى، وهما في نضج العمر، ولابدّ للذكر أن يقضي وطره مع أنثاه، حتى لو سمع أولاده ما يدور بين أمّهم وأبيهم من كلام قبل الولوج وبعده، وخلال الرَفث الذي لا بدّ منه في إنجاز العمليّة الجنسيّة الشهّاء، وكذلك خلال الهمس المثير للغرائز الطفليّة، بقدرٍ أكبر ممّا يثيره الكلام بصوت مسموع.

ولورانس شعلول التي هي أنا، كانت الضحيّة بامتياز. سمعت الديالوغ الجنسي الطريف بين والديها وهما يمارسان «واجباتهما الزوجيّة» في الأسبوع مرّة أو مرّتين. كانا جاهلين أرعنين، لا معرفة لهما، ولو بسيطة، بمدارك الطفولة، ونباهتها في الإصغاء والسمع، وما يولّدان من اهتياج في الغرائز الجنسيّة لدى الصغار، وما يبني الكبت وعِقَدِه في نفوسهم.. الفقر آفة، الجهل آفة، تكدّس العائلة الواحدة في غرفة واحدة آفة، والسمع

آفة الآفات، وممارسة الجنس، المشروعة تمامًا بين الزوجين، غير مشروعة وبإطلاق في نفوس الأبناء، غير أنّ الأمور هي كذلك، مادامت الشروط اللاإنسانيّة تفرض نفسها، في النكاح وفي نداء الجسد إلى الجسد، وفي التهيئة التي تسبق الإيلاج، سواء في القبل، أو في رضاع النهدين، أو عضّ الكتفين، أو الاحتواء بين الذراعين، أو التنهّدات من غلمة، أو الصرخات الصغيرة من لذّة، أو الهزّ واللّزّ، ثم الاندفاع المجنون أعلى وأسفل، حين العسيلة تندفع من الظهرين، ويبدأ الخوار، من فرط ارتواء، بين المتراكبين!

آه! نعم آه، لورانس شعلول عاشت، على مدى طفولتها المبكرة، جحيم هذه الكوميديا السوداء. كانت في الشهور الأولى كارهة. كرهت أباها لأنّه كان يعتدي على أمّها، وكان الاعتداء هو الجوهر، أصلاً، فالعمليّة الجنسيّة عدوانيّة شئنا أم أبينا، ولا سبيل للوثوب على أذاها أو تفاديه.. الرضوخ إذًا، ومع الرضوخ كبت العواطف، والعواطف لابدّ أن تنتقم لنفسها، آجلاً أم عاجلاً، وكان انتقام عواطفي، أنا التي أحكي لكم حكايتي، رهيبًا جدًّا!

مشاكسة تقولون!؟ نعم مشاكسة! الزمن الرديء لا ينجب إلاّ أبناء أرداء، والزمن المشاكس لا يلد إلاّ أطفالاً مشاكسين، والبلوى، هنا، تهون، تهون عند الزمن الفاسد الذي ذراريه فاسدون كلهم، والمضحك في الأمر أنّ هؤلاء الفاسدين، يزعمون أنّهم سيكافحون الفساد، فهل سمعتم، رعاكم الله، أنّ فاسدًا يكافح نفسه!؟ قد يتنطّع، وهذه كلمة لا أرتاح إليها، بسبب من أنّ أحد الكتبة يستعملها كثيرًا، قد يتنطّع أحدهم فيدّعي أنّ الفاسد يكافح نفسه بالتوبة عن الفساد! وهذا تبرير غير مبرّر إطلاقًا، حتى في هذه العقود التي أصبح التبرير فيها إلى رواج، كما النفاق إلى رواج، وصنوه التبصيص، والتدليس، والتمليس، وحشو الكيس من كيس، كيس الغانم من المغنوم، وكيس المبشوم من المشؤوم، وكيس الراكب من الراجل، وكيس المقعدين من الحصير، وكيس البصير من الضرير، إلخ إلخ...

نعم! ثم نعم! ثم نعم! والتثليث، في هذا المقام، له دوام، وله ضرورة وأحكام، والمعذرة من المقشرة، وما نفعله بأهل الورى، فصاحبة هذه القصّة عاهرة كوسموبوليتيّة، والكوسموبوليتيّة كلمة جذورها لاتينيّة،

وتعني اللاانتماء، ومادمت غير منتمية فإنّني غير معنيّة بما اتفق عليه كتّاب القصص من أحكام القصّ، لذلك ديباجتي صريحة، مريحة، لا لوم عليها ولا تثريب، تكون، حينًا، بصيغة الراوي، وتكون، أحيانًا، بصيغة المتكلّم، أو المتأمّل، أو الشاهد المحايد على ما يشطح به القلم، وبعض الأقلام، في هذه الأيّام، مدجّنة، أو مخنّثة، أو محطّمة، وهي، أي بعض الأقلام، قد أدارت ظهرها لصاحب كتاب «النفط مستعبد الشعوب» فقد قال، لا فضّ فوه:

«قلمي لا تكن كالعاهرات   للّذي عنده الفلوس تؤاتي!»

وهذه نصيحة، والنصيحة كانت بجمل فصارت بعداوة، وعلى كل حال فإنّ الجائع، في وقتنا الراهن، لا يقوى على تنفيذ مقولة أبي ذرّ الغفاري، وله في ذلك أعذار، تتناقلها الأخبار، في العديد من الأمصار.

فإذا عدت، والعود أحمد، فإنّ قصّتي، أنا لورانس شعلول، تبدأ بواقعة طريفة، وطرافتها مستمدّة من غرابتها، وقد قالوا، قديمًا، رب صدفة خير من ميعاد، وهذه الصدفة قادتني، بعد خروجي من بيت أبي في طلب الرغيف، إلى سيّدة غنيّة، غنيّة جدًّا، وشاذّة جدًّا، ولم

[illegible]، في طفولتي المبكرة، أعرف معنى الشذوذ، لا في [illegible]، ولا في الرجال، وعندما رأتني هذه السيّدة أسير [illegible] الشارع حافية، شبه عارية، عرضت عليّ أن أشتغل [illegible]، فقبلت شاكرة، وما إن دخلت الباب الواسع، [illegible] الباذخ، حتى ابتسم لي الحظّ، ابتسم؟ نعم! ولكن كيف!؟

ـ ٣ ـ

كيف هذه تحتاج إلى شرح طويل، فيه العجب، ومع العجب لابدّ من التأنّي، منتفعةً من بعض ملاحظات كتّاب القصص والروايات، وهذه الملاحظات تستدعي، في القصّ، ألاّ أسرع في حرق المواقف، فالموقف، كما أفادتني إحدى الدراسات، وفي أيّ موضوع، لا ينبغي أن نسرع فيه، كما نسرع ونحن نركب درّاجة هوائيّة، ولا أن نبطئ كما نتسلّق جبلاً مثل جبال همالايا، لذلك أنفر وأنا أقرأ قصّة أو رواية، من المؤلّف الذي لا يعطي كل مشهد حقّه، كأن يقول دخل بطل الرواية الصالون، خرج منه إلى الشرفة، غادر الشرفة إلى الغرف الداخليّة، خرج منها إلى الشارع، وجد نفسه، بعد قليل، في أحد المقاهي، غادر المقهى إلى كباريه، تعرّف إلى إحدى الغانيات، اصطحبها إلى البيت، نام معها، وفي اليوم التالي افترقا، أو تصادقا، أو قرّرا الزواج، وبعد ذلك توجّها إلى المأذون!

لا تعجبني مثل هذه اللهوجة في أيّ قصّة أو رواية، القصّ يحتاج إلى التأمّل، إلى الفهم، إلى إعطاء المشهد ما ينبغي من إشباع، إلى الإقلاع عن السرد المتعجّل، شأن راكب الدرّاجة.

أقول هذا في حدود رأيي، ورأيي لا يلزم أحدًا غيري، فالخطأ وارد دائمًا، والأخطاء، في هذه الحياة، كثيرة، بسبب من أنّنا كلّنا خطّاؤون، والأخطاء، في هذا الزمن الرديء، رديئة، قاسية، قاتلة أحيانًا، ولكم أخطأت أنا، ولكم دفعت ثمن أخطائي، مادامت الأخطاء تتطلّب أثمانها، والثمن كان دائمًا جسدي، فالأنثى بائعة جسد، والمشترون هم الرجال، والروايات التي تتخذ من الجسد موضوعًا رائجة، ورائجة أكثر إذا كان هناك كلام مباح، كأن تسمّي الكاتبة أعضاء جسدها، أو جسد من يشتهيها بأسمائها، تعجّلاً للشهرة، وإمعانًا في إثارة الغرائز البهيميّة، المستثارة أصلاً بسبب الحرمان، فيكون الكلام على اللّحس والمصّ والرضاع، من الأعضاء التناسليّة، وعلى المكشوف.

أنا لورانس شعلول لست كاتبة، ولا أستطيع أن أكونها، وقد لا أريد أن أكونها، لذلك أترك الكلام على

الجسد، وذاكرة الجسد، وما تعلّق بالجسد، إلى الفتيات الساقطات، المستعجلات الشهرة، مكتفية بسرد قصّتي على هون، وبنوع من تملّق التعابير كي تؤاتي، ومن الصعوبة أن تستجيب، فأتعذّب متشفّعة بألف إبليس، مدركة أنّ عذابي، أو بعضه، ناجم عن عقدة تعذيب النفس التي أعاني منها، رغم أنّني، كما سيعلم من يقرأ قولاتي هذه، خرّيجة كلِّيَّة الآداب، وقد داعب خيالي المريض بالشبق الجنسي، أن أحاول الأدب، ولو بالشكل الذي يتيسّر، إلاّ أنّ كلِّيَّة الآداب، كما قالت إحدى المدرّسات فيها، لا تخرّج أدباء أو أديبات بالضرورة، وإلاّ لكان لدينا من هذا الصنف بعدد العاطلين عن العمل، ففي كلِّيَّة الآداب، يوم كنت من طلابها، عدد يتجاوز عشرات الآلاف، وقد قال لي مدير الكلية، في نوع من فشّ الخلق «كل هؤلاء الطلاّب سيصبحون، بعد تخرّجهم، إلى صفوف العاطلين عن العمل» والحمد لله أنّني لست منهم، لأنّني اشتغلت على حسابي، وتجارة الجسد أقدم تجارة في هذا الكون المبارك.

إلاّ أنّ تجارتي، وبالجسد طبعًا، كانت رابحة جدًّا

لأمرين: الأوّل إرضاء غلمتي، والثاني إرضاء غلمة المرأة الغنيّة التي التقطتني من الشارع، كيف؟ وفي الجواب تمهّلوا، نعم! تمهّلوا! لا تضطروني إلى ركوب درّاجة هوائيّة كما يفعل غيري، فشرح المواقف بالتأنّي يكون، والموقف الذي أنا فيه يحتاج إلى مضاعفة التأنّي، كوني، الآن، عاهرة شاذّة، تخرّجت من مدرسة معلّمتي، أو سيّدتي الثريّة الشاذّة، حتى صار الشذوذ إحدى هواياتي، منذ كنت طفلة، أنام لصق خاصرة أمّي، بينما أبي يركبها، وهما يظنّان أنّني نائمة، وأخواتي وأخي مثلي، في الغرفة الوحيدة الفقيرة التي انحشرت فيها عائلتي.

أعود، بعد هذه الاستطرادات المملّة، أو خفيفة الدم، لا أدري، إلى رواية حكايتي الطريفة والمؤلمة معًا، فالطرافة في موضوعها، والألم لأنّها بنت فقر، أو إملاق، أو سغب، أو إدقاع، وهي ذكرى، «والذكريات صدى السنين الحاكي» كما في أغنية «جارة الوادي» التي ينسبونها إلى الظريف نجيب حنكش فخر معلّقة زحلة، ومعلّمتي التي التقطتني من الشارع لم تأخذني ولا مرّة إلى زحلة بل إلى نينوى، ومنها إلى الشعرى، وهي مكان

معلّمتي، أو مسقط رأسها كما يقولون، واسم معلّمتي «الستّ بدور» وهي غير «الست بدور التي جوّا سبع بحور» لأنّ هذه خرافة، وحكايتي حقيقيّة، وقد كانت هذه المعلّمة، التي أعيش الآن على ذكراها، حادّة الذكاء، نيّرة البصر والبصيرة، قويّة الشخصيّة، فولاذيّة الشكيمة، مسترجلة والعياذ بالله، لكنّها غنيّة، والغنى ستّار العيوب، ولم يكن في الستّ بدور من عيب سوى أنّها تكره الرجال، وتحبّ الكواعب حبّ الموت، وكنت كاعبًا، على دراية بالجنس في أصوله لا في شذوذه، لهذا كانت تضحك من جهلي في علم اللذاذات، لأنّني أنثى، والذي «تمرّس في اللّذّات وهو فتى» ذكر، وللذكر كل حرِّيات هذه الغانية، بينما الأنثى، وحتى لو كانت كاعبًا مثلي، لها «خلسة المختلس» فقط لا غير.

المهمّ، وهناك الأهمّ الذي سيأتي في سياقه، المهمّ أنّ السيّدة بدور لم تأخذني إلى الحمّام الفاخر في قصرها العامر، بل أجلستني قربها على كنبة، أو مقعد من عهد لويس الرابع عشر، وسألتني عن حالي، وعن مالي، وعن أهلي، وسهلي، وما إذا كنت جبليّة، أو وعريّة، وعن أبويّ وإخوتي، ودراساتي ومؤهّلاتي، لكنّها لم

تسألني ما إذا كنت باكرًا أم ثيّبًا، وشرحت لي معنى
الثيّب التي هي فقدان البكارة، فأجبتها أنّني باكر، وأنّ
أحدًا لم يبس «تمّي» سوى أُمّي، فضحكتْ لهذا التشبيه،
وطلبت منّي أن أقف، أستدير، أجلس، أنهض،
أقرفص، أميل بجذعي إلى يمين، إلى يسار، أقترب،
أبتعد، أقبّلها في جبينها، وجنتيها، ذقنها، فمها، أمشي،
أركض، أهرول، أنحني إلى أمام، إلى وراء، أصعد
الدرج إلى الطابق الأعلى، أنزل إلى الطابق الأسفل،
أفعل ذلك عدّة مرّات، ثم أقترب منها، أرفع ذراعي،
أنزلهما، أقوم بذلك عن بعد، عن قرب، أتعب، أتعرّق،
تتشمّم عرقي، تدسّ أنفها بخفّة، رشاقة، مؤانسة، في
ظهري، صدري، بين نهدي، تحت إبطيّ، وبعد هذا
النوع من الاختبار الذي لم أكن أعرف له سببًا في ذلك
الوقت، أرادت أن تسمع منّي كلمة، أو أغنية، أو
تمتمة، ففعلت، تقصّدت أن أفعل، أن أستجيب، أن
أقوم بكل ما تطلب، دون إدراك تامّ للغاية من كل هذا
الاختبار، سوى الحدس بأنّها تريد أن تتّخذني ابنة لها،
وهذا ما جعلني مسرورة لأنّني سأعيش معها، وفي
قصرها، ثم في المبهم، الذي سيعلن لاحقًا، كنت
أرغب في شيء صغير كبير في وقت واحد: أن أكون

سيّدة هذا القصر الصغيرة، دون أن أغفل، لحظة واحدة،
أن معلّمتي هي سيّدة هذا القصر الكبيرة، ففي هذا
الترتيب الذي حدست به، قبل أن أفكّر فيه، بعض
الشكر، وبالشكر تدوم النعم!

لورانس شعلول تعرف، إلى حدّ ما، نفسها، تعرف،
أيضا جسدها، تحبّ هذا الجسد، تعشقه، بغير وعي
بدءًا، وبوعي تدريجيًّا، إنّه ثروتها، ومن الغفلة ألاّ
تستثمر هذه الثروة، ألاّ تنمّيها، ألاّ تستغلّها بالشكل
الأفضل، الأمثل، وتوظّفها بشكل عقلاني في خدمة
مآربها سواء في لذّة الإثراء، أو لذّة الاغتلام، أو
الارتواء الذي وحده يرضي الحواسّ، لصبيّة طموح،
مجبولة بالمشاعر، معجوقة بالأحاسيس، لا فرق بين
الفضيل أو الخسيس منها، مادام الجنس، في الغاية
القصوى، هو التجارة الرابحة في سوق العرض
والطلب، وقد مارست لورانس هذه التجارة بدراية
وحنكة، وتعلّمت من خلال ممارستها بعض ما ينفع،
وبعض ما يضرّ، وتجنّبت، قدر المستطاع، الخسارة،
مدركة، منذ مراهقتها، أنّ في التجارة، بكل أنواعها،
لابدّ من الخسارة والربح، فدون خسارة لا يكون ربح،

كما دون موت لا تكون حياة، على نحو ما وعته من شروحات آنستها في الدراسة الإعداديّة.

«خُلق الإنسان ليتعلّم» هذه إحدى محفوظات لورانس من الإعدادي، وفي الإعدادي، والثانوي، وحتى الجامعي بعد ذلك، لم يكن هناك أيّ درس حول الجنس وممارساته، وحتى أعضاء الجسم ووظائفها، كان يشار إليها بالإيماء، بالتورية، أو بالتعمية، فطالبات الصفّ، وقد بلغن أو قاربن البلوغ، ممنوع عليهنّ سماع أكثر من ذلك، رفضًا للعيب، أو تجنّبًا له، مع أنّ هذا العيب مرسوم، بشكله المستتر، على باب قاعات الدرس ونوافذها وجدرانها، والطالبات، أو أكثرهنّ، يتغامزن من وراء ظهر المدرّسة، تغامزًا مؤدّاه: نعرف، ونعرف، ونعرف!

أمّا لورانس شعلول، التي تخرّجت من مدرسة والديها في الجنس وكيفيّة ممارسته، وطبّقته بأشكاله التراتبيّة، على نفسها أوّلاً، ومع غيرها ثانيًا، سواء في السرّ أو العلن، فإنّها كانت تفهم توريات المدرّسة وتضحك، في سرّها من كل هذا التكتّم الذي ينتج عكسه، أي إيقاظ الأحاسيس الجنسيّة، تشبيبها، تسعير نارها في كل النقاط

[illegible]، من أدنى إلى أعلى، دافعة الطالبات، أو بعضهنّ، إلى العبث بأجسادهنّ على نحو غير صحّي، رغبة أو نكاية، لا فرق.

الست بدور، معلّمتي الثريّة جدًّا، كانت متزوّجة وغير متزوّجة، فالزوج الذي يأتي إلى البيت، في فترات متباعدة، كان يقبض جعالته ويمضي، ولم أعرف اسمه إلاّ بعد وقت طويل، عندما قالت له: «اسمع يا وسوّف، لا تأتي قبل أن تُتَلفن، حسب الاتفاق بيننا!» ولأنّي قرّرت ألاّ أتدخّل في الأمور التي لا تعنيني، لم أسأل عن هذا الزوج وماذا يعمل، وكيف يعمل، أو أين يقيم، وهل هو كامل الرجولة، أو عنّين، أو مخصي، أو غافل، أو متغافل، أو يعرف أنّ زوجته بدور شاذّة، ترفض الرجال، وتأنس بالنساء، وبالفتيات الكواعب من هن، وليس حرج، أو عيب، أو خسارة، وأنّ السكوت، مقابل المال، مجزٍ له، ومريح لزوجته!

إن بيع الجسد، في كل أشكاله، تجارة قديمة قدم التاريخ، والأنثى التي تبيع جسدها للرجل، تبيعه للمرأة أيضًا، ومسألة التمرّس باللّذة يمكن الحصول عليها بأكثر من نمط واحد، على شرط أن يكون هناك تسليم،

اصطبار، سبر للأمور أعمق فأعمق، مرّة بعد مرّة، ويومًا بعد يوم، وتفنّن مكتسب على مراحل، وانتفاع متبادل، ترجمته إرضاء واسترضاء، عطاء مقابل أخذ، صبر في البدء، كره أيضًا، رفض، إصرار على الرفض، يليه، مقابل المال، قبول مقتّر، قطرة إثر قطرة، جارحة بعد جارحة، اللّمس البريء، اللّمس غير البريء، قبلة من الرأس، بعدها من الخدّ، بعدها من العنق، ثم من الفم، فالعنق، فالصدر، فالنهد، نزولاً، صعودًا، يلي ذلك الشعور بالدفء، بالحرارة، بالسعير، الاسترخاء مقرون بالممانعة، تخفيف الممانعة، الممانعة كرة أخرى، تخفيفها، تقبل الشيء على مضض، التزحزح، التقلّب، الدفع إلى الوراء، محاولة الهرب، التظاهر بالهرب ولا هرب، الشكاة، التأوّه من الألم، رفع الصوت احتجاجًا، الصراخ، آه! آه! آه! ما هذا؟ كيف هذا؟ لماذا هذا؟ ماذا يجري؟ الرحمة! الرحمة، أكاد أموت، لا أموت، الاحتضان، الاحتواء، التركيز، رجاء، تقبّل الرجاء، هذه المرّة فقط، هذه المرّة فقط.. تنتهي المرّة.. بكاء، تظاهر بالبكاء، التلاشي.. الهمود، البقاء في حالة همود.. في حالة الافتراع.. في رفض النهوض.. تعب، تعب، تعب، أكاد أموت من

التعب.. دلال.. دلال امرأة افترعتها امرأة..
محاولات إرضاء.. مال! هدايا.. أو وعود بمال
وهدايا.. تمّت اللعبة.. ولكن تمّت في المرّة الأولى
فقط، وبعد؟ هناك مرّة أخرى، ثم أخرى، ثم ثالثة،
ورابعة.. امرأة تعشق امرأة.. السيّدة بدور عشقت
لورانس شعلول، وأنا، لورانس، باكر ولست بثيّب،
لكنّني أفهم جيّدًا في هذه الأمور، والفضل في هذا الفهم
يعود إلى والديّ، يوم كان أبي يفترع أمّي وأنا صغيرة،
كنت لصق هذه الأمّ، عند خاصرتها تمامًا، وبلطف
وحذر أبعدتني عنها، ظنّت أنّني نائمة، ولم أكن نائمة بل
تناومت، باختصار كان الجماع لابدّ أن يتمّ، وبعد أن تمّ
تناوبني شعوران: كره والدي وحبّ أمّي، ومع الأيّام،
تغيّر الكره والحبّ كلاهما، حلّت اللّذّة الطفوليّة، اللّذّة
المبهمة التي لا قذف معها، بل وضع الإصبع في النقطة
الهامّة، النقطة التي في أسفل البطن، والمداعبة اللاواعية
ولكن المريحة، يعقبها النوم الهانئ، مع نوع من الترقّب
السحري، بانتظار الجماع الآخر، الذي كان يستعلن في
قول الوالد: «اليوم سأنام على السرير» فأفهم أنا، ويفهم
الأخوة، كل على طريقته، أنّ شيئًا سيدخل في شيء،
وأنّ معركة الوشوشة، والغمغمة، والجمجمة، والسباب

الفاحش، ستدور بين الوالدين، قبل الهزّ والرزّ، وارتجاج التخت الخشبي، وانطلاق سعلة الوالد التي هي، بالنسبة إليهما نقطة النهاية، وبالنسبة إلينا ختام الوليمة الجنسيّة.

كتلة الزمن السائلة لها قانونها الخاصّ، ولم نكن، في الغرفة الوحيدة الفقيرة، نعرف ساعات الزمن، فالتقويم الوحيد لدينا هو الأصباح والأمساء، يطلع الضوء فنعرف أنّه الصباح، وتهبط الظلمة فنعرف أنّه الليل، وكان الصباح يبشّرنا بالنهار، وفيه السعي وراء اللقمة، والظلمة تأتينا بالجهمة، لأنّ الفانوس الوحيد في الغرفة كانت «قزازته» تطقّ كيدًا، فنسهر على ضوء شمعة، وكانت هذه الحال إلى ترجيح غالبًا.

ماذا تفعل خرّيجة هذه المدرسة المفروضة عليها بحكم القدر؟ إنّ بعض الأسئلة الغبيّة لا تعطي أجوبة غبيّة بالضرورة، فالكائن البشري خلق ليتعلّم، وهذا الكائن هو الأنبه بين الكائنات، لذلك هو الأجدر بالتعلّم بينها، وعلى ذلك فقد تعلّمت، بعد أن تخرّجت من الثانويّة، أنّ القدر لا يقاوم، ومن العبث أن نحاول ذلك، وكل ما نستطيعه هو التماس اللّطف به، وهذا ما تحقّق لي،

عندما رماني الدهر بين مسنّنات الشذوذ، لدى امرأة ثريّة وشاذّة، وما تبقّى هو الانتفاع بما وهبني الله تعالى من شبق اللّذّة وشبق الذكاء، في جعل هذه السيّدة أسيرة رغباتي، في تدريبها على الاستزادة من لذّة الوصال معي، سواء كنت تحتها وأنا أستلقي على ظهري، أو جعلها تنعم بلذّة الردفين والظهر وهي فوقي، ثمّ الرفثّ، أي الفحشاء، في الكلام، وبصوت عال، والعض الموجع استثارة للغلمة، وإذكاء للرعشة الأخيرة التي تنحلّ معها الأوصال في المرأة والرجل على السواء.

مقابل إرواء هذه الشذوذيّة الظمأى، كنت أسعى لكسب المال أوّلاً، فلمّا تحصّل لي سعيت إلى كسب أثمن الحلي وأفخر الثياب، ولمّا اكتفيت منهما، انقشع أفق حياتي أمامي فأزمعت على تحقيق ما فاتني بسبب فقري، وهو إكمال دراستي في إحدى الجامعات، وفي كلِّيَّة الآداب تخصيصًا، فوافقت السيّدة بدور، شريطة ألاّ تكون الدراسة على حساب اللذّة، أي أن أقوم بواجبي في الحالين، وقرّرت، بعزم لا يلين، أن أفي شذوذ سيّدتي حقّها، ودراستي الجامعيّة حقّها أيضًا!

الحياة شراع، وكلّنا سواسية في السفر على متنه،

وكانت الدراسة، صدّقوني، هي المتعة الصغرى، واللّذّة الشاذّة هي المتعة الكبرى، والتي كانت تنام تحت، صارت مع الأعوام تنام فوق، صرت مثل حبّة العدس، لا يعرف لي وجه من قفا، ودرّبت سيّدتي بدور على شذوذي الذي أصبح أمضى من شذوذها، وفنوني في ذلك تفوق جميع الشاذّات أمثالها، ولم تعد لي رغبة في الرجال، ولماذا الرجال؟ لماذا وأنا أكره والدي الذي كان يحسبني نائمة وهو فوق أمّي! ولماذا لا أحبّ أمّي وهي التي كانت تتألّم وأبي فوقها؟

قامت في نفسي رغبة في الانتقام! من الذي يزعم أنّ الانتقام ليس له لذّة الجنس أيضًا؟ ومن يكابر في أنّ الجنس مصدره الجسد، وأنّ الجسد هو الأصل، وكل ما تبقّى من لذاذات فروع؟ أنا، لورانس شعلول، امرأة شاذّة، شاذّة على سنّ الرمح، وشذوذي لا يضرّ أحدًا لذلك لا حقّ لأحد في مساءلتي عنه، ومع أنّ الظلم لا يُردع إلاّ بقانون، فإنّ لذاذات الجسد لا تقع تحت طائلة العقاب لأيّ قانون، في أيّ مكان من كرتنا الأرضيّة.

إنّكم، وأعرف هذا عن يقين، تريدون سماع بقيّة حكايتي، إلاّ أنّ زميلاً لي في كلِّيَّة الحقوق أوضح لي

حقيقة معيشة في هذا الزمن، ومفادها التعدّديّة في الأصوات، التعدّديّة في الصفات، التعدّديّة في المستويات، التعدّديّة في السياسات، أو التعدّديّة السياسيّة كما يقولون، لذلك، وأخذًا بمبدأ التعدّديّة هذا، أتوقّف عن إتمام ما بدأت به، مفسحة في المجال له كي يقول ما عنده، على أن تكون لي وله، عودة إلى هذا الموضوع في رواية قادمة.

- ٤ -

هل تعرفون من هو أيّوب القرن الواحد والعشرين؟
إنّه، وبغير إيضاحات نافلة، كاتب هذه السطور، وهذا
الكاتب الأيّوبي وقع عليه اختيار لورانس شعلول، في
طلب لا يُردّ لأسباب خاصّة، كي يقرأ ما كتبت، إيمانًا
منها أنّني نزيه القصد فيما أبديه من رأي، حول ما تكتب
هي أو غيرها، وذلك استنادًا إلى مقولة متداولة، مفادها
أنّني شديد الذكاء، حادّ الرؤية، نافذ البصيرة، أحطّ من
أشاء، وأرفع من أشاء، وتاريخي شاهد على أنّ ذلك
كذلك، بصرف النظر عن كل الاعتبارات الأخرى، ومع
الحيطة في الإيضاح دون الإفصاح، تجنّبًا للفضائح التي
هذا زمنها بامتياز، وكيلا تتأذّى فلانة في خليجنا العربي،
أو تضار علاّنة في متوسّطنا اليعربي، أو نقع في مخالفة
يطالها قانون النشر، في ضميريه البارز والمستتر.

أشهد أنّ كل ما ذكر عنّي افتراء محض، ومقولة ذكائي
الحادّ كذبة بلقاء ستنكشف في مقبل الأيّام، والحديث

عن رؤيتي الصائبة حديث خرافة، ونزاهتي مشكوك فيها، واختيار لورانس شعلول في غير محلّه، فأنا متذوّق لا ناقد، وهذا المتذوّق شهادته مجروحة، وكل ما فعلته في هذه الحياة لا يتعدّى نغمًا في طنبور الكلام، وليس لي، من نعمة الحول والطول، سوى السترة، وغير صحيح أنّني أشيل من أريد، وأحطّ من أريد، فلم يسبق لي أن رفعت أحدًا، أو حططت أحدًا، وكل ما في الأمر أنّني محظوظ، وحظّي هو الذي سيّرني في طريق الجلجلة، ومنذ ثمانين عامًا وأنا أحمل صليبي على كتفي، وللنكاية، قولة دعبل الخراعي، إنّني لم أجد من يصلبني عليه فأستريح وأريح معًا.

لقد فكّرت طويلاً في اقتراح لورانس شعلول، وقلّبت الأمر على وجوهه الأربعة، بسبب من أنّني أقلعت عن العادة الذميمة في نصرة المرأة مظلومة أو ظالمة، وصرت أشكّ في صحّة موقف قاسم أمين من المرأة، هذه التي رفع لواء نصرتها بشكل طائش، مندفعًا بحماسة الرجل الذي يريد إثبات أنّه فاضل، مادام أحد الأفذاذ زعم أنّ أفضل الرجال هم الذين يقفون إلى جانب المرأة، متناسيًا النقصان في التمام، أو جاهلاً أنّ ابن

الخطيب الأندلسي قال في كتابه «نفح الطيب» «لكلّ شيء إذا ما تمّ نقصان» أو أنّ التمام قد لا يُدرك لأسباب عديدة، رغم أنّ المتنبّي العظيم قال: «ولم أرَ في الناس عيبًا/ كنقص القادرين على التمام» وإدراك التمام تقوم دونه علّة، وهذه العلّة هي الأساس «فالظلم من شيم النفوس: فإن تجد ذا عفّة فلعلّة لا يظلم» والعلّة هنا هي القانون الذي افترض الشارع أنّ الناس سواسية أمامه، وهذا الافتراض كان في غير محلّه، لأنّ القوانين، كل القوانين، ورغم سقراط، تسنّ لمصلحة الحكّام ضدّ المحكومين، ولمصلحة الظالمين ضدّ المظلومين، وأنّ محبّة الشعب بإطلاق لغو لا طائل منه أو فيه، فالشعب مضلّل، وبسبب هذا التضليل فإنّه عرضة لعيوب كثيرة، والحبّ، عادة، أعمى، فما نفع حبّ الشعب إذا كان ثمنه عدم تنبيهه إلى أخطائه؟ ما نفع حبّ الشعب إذا لم يكن هذا الحبّ موجّهًا نحو فتح عيون الشعب على الحقيقة؟ ثم ما نفع حبّ الشعب، إذا كان هذا الحبّ سكوتًا على الخرافات التي تجعل الشعب قطيعًا من القطعان!؟ وما يقال عن الشعب ينطبق على المرأة، فكل مسكوت عن بعض المعايب التي في المرأة تواطؤ عليها، ومشاركة في تجاهل الأسباب التي تجعل منها جارية في

بلاط السلطان الذي هو الرجل، فـ «الأمّ مدرسة إذا أعددتها» قال أحمد شوقي، وإعداد المرأة التي هي الأمّ، لا تكون في حبّها، أو عبادتها، أو الارتهان لدلالها والغنج، أو الاكتفاء بأن تكون لعبة لنا، ودمية جسديّة تمتّعنا، أو رعشة صبابة في مضجعنا، أو شبقًا لإرواء غلمتنا، وبعد ذلك نركنها في المطابخ لخدمتنا، أو نفترعها في الفراش لتناسل وتواصل ذرارينا.. فإذا كنّا رجالاً نحترم المرأة، ونأتي لنقف إلى جانبها، ونرغب حقًّا في تحرّرها من عوز اللّقمة التي تجعل منها عبدة في بيوتنا، علينا أن نُفهمها أنّ تحرّرها لا يكون إلاّ بعلمها وعملها، وأن نساعدها فعليًّا على التعلّم والعمل، وعلى شغل الوظائف التي تليق بها، ونكفّ عن الخوف من انكسار هذه القارورة منذ اللمّة الأولى، أو الصدمة الأولى.

قد لا تكون هذه المرافعة الطويلة والمملّة ضروريّة، لولا أنّ لورانس شعلول أرادتني، كما أرادني الآخرون، أن أكون ذا رأي فيما كتبته، وقد قرأت هذا الذي كتبت فوجدته موضوعًا بكرًا، جريئًا، صائبًا، فيه جنف ناتج عن فقدان حرفيّة الكتابة، أو عدم صقل موهبة الكتابة،

أو الافتقار إلى معلّميّة الكتابة، وهذه أمور تُكتسب مع المثابرة، وتتحصّل من صقل الموهبة، ومن الخطأ اللجوء إلى الإصلاح، أو النصح بالإصلاح، كيلا نستلب حقّ الكاتبة بالطريقة التي أنست بها، أو استساغتها، في كتابة ما عاشت، وسمعت، ووعت، من أمور قد تخدش الحياء، وفي الوقت نفسه تخدش الواقع، أو تحوّله إلى ديباجة أدبيّة مؤدّبة، وكل أدب مؤدّب هو، في المآل، لا أدب، أو أدب مزوّق، محسّن، مطرّى، أو مجلوب بتطرية «وفي البداوة حسن غير مجلوب» لأنّه مصاغ على شكل الخالق في خلقه، وعلى ما أراده الله الجميل الذي يحبّ الجمال في مخلوقاته.

ما تبقّى، بعد هذه السفسطة التي ترونها إقحامًا واراها إفهامًا، هو أن يكون الخير فيما اختاره الله، وأن أنزل عند رغبة كاتبة لا أعرفها سابقًا، وقد لا أعرفها لاحقًا، لأنّه سبحانه وتعالى قد تاب عليّ من إصلاح أيّة ديباجة لأيّة امرأة، وتاب عليّ من كتابة المقدّمات جملة وتفصيلاً، فالقلم الذي حملته منذ ستّين عامًا لم يكن قلمًا بل مبردًا، برّد أعصابي حتى اهترأت، وأبلى لبوسي

حتى تخرّقت، والمؤسف أنّني «تخرّقت والملبوس لم يتخرّق»!

هل تحسب لورانس شعلول أنّ المكر، وهو كل عدّتها، يمكن أن يخفي كلمة الكيد، المكتوبة بشكل يُرى ولا يُرى، على جبين كل امرأة، وأنّه يمكن أن يمرق حتى من حلق الردى، في محاولة لإيهامي بأنّ ما قالته عن معرفتها بي تعود إلى أيّام الدراسة في كلِّيّة الآداب؟ إنّها تكذب كما تشرب الماء، فأنا من هواة المغامرة، ولي موعد دائم معها، وفي واحدة من مغامراتي هذه في باريس، اكتشفت أنّ لورانس تستثمر الأموال التي حصلت عليها من السيّدة بدور، في عمل نافع لها، ينسجم مع رغباتها، بافتتاح بيت خاصّ بالسحاقيّات من النساء، له، بالنسبة إليها، فائدتان: الأولى الاستمتاع برؤية الشاذّات وهنّ يمارسن، بشكل جماعي، شذوذهنّ، والثانية إنماء ثروتها تدريجيًّا، قهرًا لفقرها وهي طفلة، واتخاذًا للفتاة الصغيرة، الجميلة، التي تختارها، عشيقة لها، كما كانت هي عشيقة السيّدة بدور معلّمتها الأولى، ولمّا تزل.

إنّ علم المنطق الذي يقضي الطلاب سنوات من العمر

في تحصيله، ليس علمًا في التنجيم، أو الضرب في المندل، أو قطف بعض نجيمات المجرّة باليد المرفوعة إلى أعلى، إنّه، ببساطة، دحض الحجّة بالحجّة، إذا ما تيسّر لنا أن ننفذ إلى جوهر هذه الحجّة، ولورانس شعلول كانت تعمل وفق ما يتطلّبه المنطق، دون أن تتعب في دراسة المنطق؛ وأخذها بالتعدّديّة سبيلاً للنجاح في هذه الدنيا، كان أخذًا منطقيًّا، لا يجانب السياسة، لكنّه لا يتكلّم عليها، أو لا يتقصّدها في القول بل يعتمدها بالفعل، وعندما آثرت التوقّف عن رواية قصّة حياتها، كانت في الإضمار تسعى إلى التشويق، كي تجعل القارئ مشوقًا إلى معرفة البقيّة في رواية قادمة، قالت إنّها ستكتبها، بعد أن يكون كاتب هذه السطور قد أعطى رأيه في قيمة ما كتبت من الناحية الفنّيّة، وهذا في الغواية لبّ الغواية، وفي الفهلويّة إتمام الرواية التي بين أيديكم بفصول من حياته، وبذلك تكون التعدّديّة السائدة هذه الأيّام قد تحقّقت فعلاً لا قولاً، وتكون لورانس قد بلغت ما أرادت من معرفة سيرة هذا الإنسان، أو معرفة ما تيسّر منها، والربح مضمون لها في الحالين.

إنّ شريك لورانس في تحبير هذه الرواية نصف عاقل

نصف مجنون، ومساهمته في تحبيرها ستقتصر على رسائل موجّهة منه إليه، تحت عنوان رسائل من الذاكرة المجنونة، يوم كان في العشرين من عمره، ويرغب في أن يطّلع الناس على ما كان يفكّر فيه وهو في هذا العمر العشريني، وإليكم الرسالة الأولى، كما وردت في نصّها الأصليّ، دون تدقيق أو تحوير أو تحسين، سواء في اللّغة أو في طريقة التعبير، ودون مداراة ما فيها من إساءة إليه، أو تجميل لسيرته، أو روْتشة لصورته التي لا يحبّ أن يراها في المرآة أو التلفاز، لا من قبيل الفذلكة، أو الفندرة، أو الدعاية، أو لفت الأنظار، أو ولع الناس في رؤيته كأنّه حيوان نادر على وشك الانقراض، بل من قبيل إثبات المثل السائر «أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه» ومهما يكن، فإنّني سأنشر رسائل هذا المعيدي المجنون تباعًا:

رسالة إلى نصف مجنون!

حين كنت في العشرين من عمرك، كنت حلاّقًا غير ملتزم، في دكّان على باب ثكنة في مدينة اللاذقيّة، بابها من أخشاب عتيقة، لا تمنع ريحًا ولا تحجب ضوءًا. نعم! هذا ما كنْته يا فصيح، يوم كانت الحرب العالميّة

الثانية تتضرّى، وكنت تتساءل، كما غوركي، يا نفس ماذا ستكونين، وماذا يخبّئ لك الغد!؟

لم يكن لديك سوى الشهادة الابتدائيّة، المنسيّة الآن في قاع البحر الأحمر، وقد حصلت عليها من المدرسة «الرشديّة» في مدينة اسكندرونة، قبل الهجرة من اللواء السليب، وقد أضعت طفولتك في الشقاء، وشبابك في السياسة، سعيًا وراء العدالة الاجتماعيّة، هذه التي تتحسّر الآن عليها، لأنّها لم تتحقّق، لكنّك غير يائس من تحقيقها، لأنّها حلم البشريّة أزلاً أبدًا.

كنت، أيّها المأفون، ترغب في تغيير العالم، ودون أن تعرف ما هي الكتابة، كتبت خربشات أسميتها مسرحيّة، أنت بطلها، وفيها تُغيّر العالم في ستة أيّام، وفي اليوم السابع تستريح، وقد ضاعت هذه المسرحيّة، وأنت غير آسف عليها، لأنّك لا تأسف على ما فات، وتتطلّع أبدًا إلى ما هو آت!

الفقر نوعان: أبيض الذي تعيشه الآن، وأسود الذي عشته منذ وعيت الوجود، حين كنت عريان إلاّ من خروق تستر لحمك، وكنت حافيًا، جائعًا، تبحث عن

اللّقمة، وفي سبيلها عملت أجيرًا عند مؤجّر درّاجات، وأجيرًا في صيدليّة، وأجيرًا مربّيًا للأطفال، وأجيرًا عند حلاّق، تعلّمت لديه مبادئ المهنة، وحمّالاً في المرفأ، وبحّارًا، أو أجير بحّار، على مركب شراعي، لمدّة قصيرة، رأيت فيها الموت يحدّق فيك، بعيون باردة، خلال العواصف، وما أشدّها في الشتاء!

إنّني أكرهك يا فصيح، وبسبب من هذا الكره، أرفض، إلاّ مرغمًا، أن أرى وجهك في المرآة أو التلفاز، لكنّك، في أرذل العمر، صرت مشهورًا، والشهرة جهنّم، فماذا تفعل، وأنت عنيد، وعِنْدُك عِنْدُ بغل!؟ حسنًا! ترفض الدعوات، لا تجيب على الرسائل، لا تتكلّم على الأدب، لا تحضر الندوات الأدبيّة، لا طاقة لك على سماع المحاضرات، والخطابات السياسيّة خصوصًا، لا ترتاح إلى كلمة عطاء، تضحك من الذين يقولون علينا أن نعطي، يقشعرّ بدنك كلّه من كلمة رواية، تعاقب نفسك لأنّك أوّل مَن تنبّأ، عام ١٩٨٢، بأنّ الرواية ستكون ديوان العرب، وعنك أخذها الآخرون ثم جحدوك، وهذا لا يهمّ طبعًا، لأنّ درب الرواية واسع، وفيه يسير جميع الكتبة تقريبًا، ومن هذا الكمّ سيكون

النوع، وعندئذ تكون لنا الرواية العربية التي تخترق جدار الصوت، وهذا جيّد جدًّا، وجيّد أيضًا أن تكون هناك ظاهرة إيجابيّة، مفادها أنّ الكثرة من الفتيات والسيّدات يرغبن في الكتابة، وفي كتابة الرواية على العموم، وعليك، يا فصيح، أن تعطي رأيًا، أن تقدّم ملاحظة، نصيحة، موعظة، أو، وهذا هو الأسوأ، أن تكتب مقدّمة، وأنت تلعن النصائح، والمواعظ، والمقدّمات، عائدًا إلى العشرين من عمرك، يوم كنت حلاّقًا، وفي بدايتك بالحلاقة، لم تكن الكتابة تخطر على بالك، وقد تعلّمتها، من بعد، بكتابة الرسائل للجيران، والعرائض للحكومة، بغية إصلاح هذا الرصيف، أو تزفيت هذا الطريق، أو تأمين الرغيف وتحسينه، أو الدفاع عن المظلومين، والفقراء، والمعذّبين في الأرض، وإسماع المسؤولين صوت الذين لا صوت لهم، وتَقبّل إسفنجة الخلّ من أجلهم جميعًا!

لقد كنت، أيّها الشقيّ، تُسرّ بالشقاء، والشيطان يعرف لماذا، كنت في العشرين، وأنت حلاّق، خرّيج سجون بامتياز، أيّام الانتداب الفرنسي، وزمن الإقطاع بعد الاستقلال، تسع مرّات سجنت، في اللاذقيّة ودمشق،

وفي السجون تعلّمت بعض الأشياء، وفي المنافي، لأسباب قاهرة، اكتسبت بعض التجارب، وكنت تفرح، أيّام الانتداب، وأنت تقود المظاهرات ضدّه، والرصاص من فوق رأسك، ومن على جانبيك، يئزّ، دون أن يطالك، حتى نفد صبر الزبائن منك ومن حلاقتك، وجاءت الطامّة الكبرى، عندما قبض رجال الأمن على من وُجدوا من زبائنك، فكان الإفلاس تامًّا، وكان إغلاق دكّان الحلاقة لابدّ منه، والتشرّد الطويل قد دقّت ساعته، فودّعت أمّك العجوز، التي لا تعرف لأيّ سبب، كانت تريدك أن تكون كاهنًا أو شرطيًّا، ولا توسّط بينهما، فلم تكن لا هذا ولا ذاك، وبعد ذلك، أيّام السجون والمنافي، تواضع حلمها فتمنَّتْ لو كنت راعيًا، وأسفتْ لأنّها أرسلتك إلى المدرسة، بينما هي وأخواتك البنات، كنّ خادمات في بيوت الناس، وقبل خروجك من اللاّذقيّة، ودّعت القوّادة جارتك، التي زوّدتك بهذه النصيحة قائلة: «اسمع يا فصيح، الرجل لا تذلّه سوى شهوته، فلا تدع شهوتك تذلّك» وقد حفظتُ هذه الوصيّة، هذه الحكمة، وانتفعت بها في مشوارك الطويل، مقيمًا ومرتحلاً، وعندما صار التشرّد مهنتك، التي مارستها وأنت تحمل صليبك على كتفيك، في

أوروبا وفي الصين، قبضتَ على هذه الوصيّة، قبضك على جمر الغربة، ورمح الحرّاس، في الجلجلة، يطعن في خاصرتك فيُنزّ الدم.

في العشرين من عمرك، أنت البائس الذي ينافح عن البؤساء، غادرت اللاذقيّة إلى بيروت مرغمًا، باحثًا عمّن يتخذك أجيرًا من الحلاّقين، لكن بحثك، أيّامًا طوالاً، لم يُجدِ، رفضوك وأنت تحمل قليلاً من الثياب، والأقلّ الأقلّ من النقود، في الصرّة التي على كتفك، فكرهت أميرة المدن، في لبنان «الأخضر حلو»، ووجدت نفسك ضائعًا فيها، ولايزال هذا شعورك، منغرسًا في تربة نفسك، يتمطهر كلّما زرتها، فتفرّ من هذا الإثم، معتذرًا لشاعر «طفولة نهد» الذي تعدّه ظاهرة لن تتكرّر، والذي قال إنّ بيروت أميرة المدن.

الحجر الذي رفضه البنّاؤون سيصير، في ضربة حظّ، رأس الزاوية، لكن ليس قبل أن يدفع الثمن غاليًا، في بحثه عن الأمل، في اجتراحه لعبة صنع الأحلام حتى لا يسقط في العدم، ودمشق التي تقصدها، بعد أن خيّبت رجاءك بيروت، لم تكن أبيض يدًا، ولا كرمًا، وقد طوّفتَ، يا فصيح، في شوارعها وأزقّتها، عساك تحظى

بمن يقبلك أجيرًا من الحلاّقين، فلم تفز بما تنشد، فالحلاّق الذي كنته، رفضه الحلاّقون الذين كانوا، والسبب أنّهم ليسوا بحاجة إلى أجراء، لأنّ لديهم الفائض منهم، ولأنّ شكلك الناحل، العليل بغير مرض، الأصفر الوجه من جوع، جعلهم ينفرون منك، وكان هذا، من حسن حظّك هذه المرّة.

حظّك!؟ لا! زمن الحظّ في مطاوي الغيب بعد، وسيأتي يوم تتساءل فيه: «لماذا لم يُدخل ماركس الحظّ في فلسفته؟» أمّا وأنت في العشرين بعد، فإنّ المصائب، أمامك، عربات قطار، مربوط بعضها إلى بعض، وأنت تواجه قدرك، مصيبة بعد مصيبة، كما عربة قطار بعد عربة، وتتجوّل في شوارع دمشق، حيث «يأتيك بالأخبار من لم تزوِّد» لأنّ أختك، وزوجها خائب، قد نشزت، تاركة ابنها عند جدّه لأبيه، ويبلغك أَحد اللوائيين أنّ عليك أن تذهب لتأخذ الطفل، وإلاّ رمته زوجة جدّه المسكونة بعفريت القسوة إلى الشارع. . ذهبت إلى كنيسة المريميّة، حيث يسكن بعض اللوائيين الفقراء، في أحد الأقبية المجّانيّة من وقف الكنيسة، وهناك وجدت الطفل الذي أنت خاله، في ثياب بالية، وشعر طويل، يسرح فيه

القمل على هواه.. تبكي؟ وما نفع البكاء حتى لو استطعته؟ تبكي أختك الناشز؟ تبكي ابنها المنذور للضياع لو لم تكن أنت؟ تبكي القدر في عربات قطار المصائب؟ كل هذا لا يفيد، «خذ الطفل إلى جدّته التي هي أمّك» قالوا لك، وأخذته، وضعته على منكبيك وسرت به إلى المرجة، ومن هناك ركبت في «بوسطة مخلّعة»، وهو في حضنك، قاصدًا بيروت، لأنّ طريق دمشق ـ حمص ـ اللاذقيّة، لم يكن سالكا بعد، ولأنّ الطفل جائع، وأنت لا تملك إلاّ أجرة الطريق، فقد لجأت إلى بيت صديقك عبدو حسني، الذي سيكون معلّمك خليل في رواية «الثلج يأتي من النافذة» وفي الصباح سافرت إلى اللاذقيّة لتوصيل الطفل «الأمانة» إلى جدّته أمّك، ثم تأخذه إلى الحلاّق، وبعد ذلك تنظّفه من القمل!

«يا شام لبنان حبّي، غير إنّي لو تُوجّع الشام، تغدو حبّي الشام» ولم تكن، يا فصيح، الشام حبّك بعد، وأنت في العشرين من العمر، إلاّ أنّها ستصير حبّك، وستستوطنها، وتضحك لك الشمس فيها، وتكتب عنها مقطوعتك اليتيمة «هل تعرف دمشق يا سيّدي؟» وتظلّ اللاّذقيّة هواك، ففيها البحر، وستُجنّ بالبحر، وتألف

عواصفه، وفيها تسبح كالسمكة، وتكتب عنها ثماني روايات، أشهرها «الشراع يطارد العاصفة» التي كرّستك روائيًّا، و«الياطر» التي يتعشّقها القرّاء، لا تدري لماذا، وبها تدخل البيوت من أبوابها الواسعة، لا بيوت الفقراء فقط، بل بيوت الأميرات والأمراء معها، وستتمنّى، في تجريد المستحيل، لو تنتقل الشام إلى البحر، أو ينتقل البحر إلى الشام، التي رفض الحلاّقون فيها، وأنت في العشرين ربيعًا، أن يتخذوك أجيرًا، مقابل اللّقمة وحدها.

رجاء البائسين لا يخيب إلى الأبد، ورجاؤك أنت البائس، الذي ينظّف ابن أخته من القمل، لم يخب، فقد نشرت لك مجلّة «الطريق» اللبنانيّة قصّة قصيرة جدًّا، عنوانها «طفلة للبيع»، وكان نشرها مفاجأة، وكان فاتحة، وجواز مرور إلى عالم الحرف، وبهذا الجواز عدت إلى دمشق، وبفضل صديق له الشكر مديد، قصدت معه جريدة «الإنشاء» لصاحبها المرحوم وجيه الحفّار، الذي كان بحاجة إلى محرّر.. وقد سألك، وأنت متطامن أمامه، عمّا تحمل من شهادات، فتلعثمت، ارتبكت، وجمت، وبعد أن تمالكت قليلاً، أخرجت له قصاصة «طفلة للبيع» التي لم يقرأها، بل قال

لك «تعمل ثلاثة أشهر كمحرّر متمرّن دون أجر!» وقبلت العرض، بإيحاء من ذلك الصديق الذي أسكنك بيته، وأطعمك خبزه وملحه.

في جريدة «الإنشاء» عملت، يا فصيح مع سكرتير التحرير الرائع، الإنسان، الذي اسمه أحمد علّوش، والذي سيكون صاحب جريدة «الصرخة» الوطنيّة، القوميّة، التقدّميّة فيما بعد، رحمه الله.. ومنذ عملت معه بثّ الطمأنينة في نفسك، فقد شرح لك، بأناة، ملامح عملك، وأوّلها سماع نشرة الأخبار الإملائيّة الصباحيّة من إذاعة دمشق، وتسجيلها بخطّ واضح، وثانيها كتابة ما يُملى عليك، وثالثها تصحيح «بروفات» الطبع، ورابعها انتقاء بعض الأخبار والطرائف من الصحف اللبنانيّة والمصريّة وقصّها، لاستخدامها في الصفحة الثالثة، وخامسها توضيب المحلّيات من نشرات المخبرين المحليين ونشرها في الصفحة الثانية، وسادسها عدم الخجل من السؤال عمّا لا تعرف.. وقد اجتهدت في استيعاب كل ما يقوله، وتنفيذه بدقّة، وفي آخر الشهر الأوّل، دخل غرفة صاحب الجريدة وأثنى على عملك دون أن يخبرك، وفي اليوم التالي طلبك الأستاذ وجيه

الحفّار، وقال لك: «بعد أن شهد لك الأستاذ أحمد، وحمد طاعتك، واجتهادك في العمل، قرّرتُ اختصار مدّة التمرين إلى شهر واحد، وستأخذ مئة ليرة سوريّة في الشهر، اعتبارًا من اليوم!».

الفرحة الغامرة تشهّت على وجهك حتى لم تعد تعرف كيف تشكره، لكنّك لم تغادر مكتبه، فسألك: «ماذا تريد؟» قلتَ على استحياء شديد «عشر ليرات على الحساب، لأنّني جائع!» وفي ذلك اليوم تغدّيت كبابًا في مطعم على كتف بردى، بجانب جسر فيكتوريا، وكان النهر مكشوفًا بعد.. وكانت الجريدة بأربع صفحات، وبقيت فيها إلى أن صُرفت من العمل، بسبب معارضتك حلف بغداد، بعد أن غادرك الأستاذ أحمد علّوش، وصرت سكرتير التحرير مكانه.

تنقّلت بين صحف دمشق، وتابعت، بحماسة ودربة، العمل السرّي الذي اعتدته في اللاذقيّة، وكان هذا العمل يسحرك بسرِّيَّته، لانتمائك إلى حزب ممنوع، يطالب بالعدالة الاجتماعيّة.. ولم تكن، وقتئذ، تعرف ما يخبّؤه لك القدر من تشرّد طويل طويل، في سبيل هذه العدالة.

ترنّم الشاعر المرحوم معين بسيسو بقوله: «الصمت موت، والقول موت، فقلها ومت» وقلتها ولم تمت.. إنّك، الآن، على مشارف الثمانين من عمرك، وقد كنت دائمًا على موعد مع المغامرة، نصف مجنون نصف عاقل، وتحبّ نصفك المجنون أكثر!

آمل أن تصلك رسالتي، فتعرف، قبل الناس، من أنت!!!

وأنت، يا فصيح، لاتزال تؤمن بالعصر، رغم خيباتك فيه، وستظلّ تؤمن لأنك، كما تزعم، أنّ العصر لا يخيفك، وإنك لست بالهارب منه، وترفض أمنية أن تنام الآن، لتستقظ بعد مئة عام، حيث الخيبات تكون قد انتهت، والهزائم العربيّة توقّفت، و«نحن أدرى وقد سألنا بنجد/أطويل طريقنا أم يطول؟» ودون تردّد تحكم أنّ الطريق طويل، وأنّنا في حال جزر، والمدّ المنتظر يحتاج إلى عقود، ولا فائدة من السؤال الذي هو اشتياق، «وأنّ كثيرا من ردّه تعليل!» فقد علّلونا بالوعود قرونًا، وبُشِمْنا من الوعود «ولا تفنى العناقيد!» والمقولة التي أطلقها الأمير عبد الله، ولي العرش السعودي، تتردّد الآن، كما الأمس وقبله وقبله: «الانسحاب الكامل، مقابل السلم

الكامل» ولشدّ ما أربكتْ هذه المقولة، وأزعجتْ أيضًا، أميركا وإسرائيل، وقد مرّ الزمان عليها، وجرت محاولات لطمسها، لكنّها كعرق الذهب في التراب، تتجوهر كل يوم، وأكثر فأكثر، وتُذكر هذه الأيّام والعرب حيارى، أمام ما يجري في فلسطين والعراق، وتبقى الحكمة إيّاها سبيلاً إلى الفرج المنتظر.

وما حاجتك إلى السؤال: «من أنتَ»؟ ألا تعرف، يا فصيح من أنت؟ وتردّ سريرتك قائلة: «لو عرفتَ من أنت لكنت حكيمًا، مَن يعرف نفسه يكن في الحكماء، وأنت لست منهم، أنت تكذب، ببساطة على الناس، وعلى نفسك أيضًا، في زعمك أنّ ما أنت فيه، سببه الحظّ، مع أنّك، في القرارة، على يقين أنّ الحظّ خانك منذ كنت يافعًا، وظلّ يخونك حتى في الكهولة، والشيخوخة التي هي أرذل العمر، وسيستمرّ سوء الحظ إلى أن يتهاوى الجسد، فتسقط مريضًا أو ميتًا!».

تُرى كنت، أيّها الذي يشقى الآن، تحسب أنّ يومًا سيأتي، لا تعرف فيه ما تريد؟ أنت مراوغ في كتلة من الخبث، والذي تريده معروف وغير معروف، إنّه، ببساطة، مثل الزئبق في ميزان الحرارة، يتأرجح بين

صعود وهبوط، حسب الحالة النفسيّة التي تكون فيها، وأمنيتك في موت مريع، خلبيّة كسائر أمانيك، وهذا ليس بالسوء الذي تظنّ، فهو دلالة على التعب، لا أكثر ولا أقلّ، وماذا ينتظر الأديب أو الفنّان، في عالمنا العربي الكبير هذا، سوى التعب؟ وكم قلت للناس، في كتبك ومقابلاتك الصحفيّة، إِنّ الراحة، ولو بغير تعب، مرفوضة، لأنّ الكتابة تحفظ توازنك النفسيّ، وهي خلاصك المنشود في هذا العالم المضطرب؟ تكره نقيق الضفادع تقول، وقد يكون هذا ناشئ عن وهن في أعصابك، لأنّك، كما ترغب أن تصف القلم بأنّه مبرد، وأنّ هذا المبرد برى، أو حتى أتلف أعصابك، وهذا وصف يقارب الدِّقّة، إلاّ أنّه نقيق ضفدعة هي أنت، أيّها السمكة في بحر، ولا تعرف أنّها في بحر، والنقيق المكتوم في ذاتك، يحسن بك أن تخرجه إلى العلن، لمصارحة الذين حولك، بالحقيقة التي تأبى الاعتراف بها، مع أنّ الاعتراف يريحك، وعندئذ يكفّ النقيق الذي في داخلك، حول الرغبة في الموت، أو الرغبة في الحياة، ومادامت الكتابة هي خلاصك في هذا العالم، فلماذا الاختباء وراء إصبعك؟ ولماذا تخفي حقيقة أنّك تريد أن تكتب وتكتب، وفيها اعتراف بأنّك ترغب أن

تعيش وتعيش، لأنّ الأحياء وحدهم يكتبون، أمّا الأموات فإنّهم يسكنون ذاكرة الأحياء، ويخلدون إلى الراحة في ظلمة مثواهم الأخير.

إذًا، أنت يا فصيح، تنقّ، وتشدّد، في الوقت نفسه، على كرهك للنقّ، والمسألة، هنا، من طبيعتك ككاتب، والكتّاب والفنّانون ليسوا على صلح مع الحياة، لا بالنسبة إليهم كشخوص يحيون بيننا، وإنّما كشخوص يفترقون في نقطة أساسيّة عنّا، هي أنّهم ليسوا في صلح مع الحياة بالنسبة للآخرين، المعوزين والمظلومين، وفي كفاح الأدباء والفنّانين لأجل ما هو أفضل، يستأنفون دائمًا ضدّ ما هو كائن، من أجل ما سوف يكون، أي توفير الحرِّيَّة والرغيف والمأكل والملبس، وبكلمة: العيش الشريف، للناس، ولأنّ هذا لا يتحقّق على النحو الذي يريدون، بالسرعة التي يبتغون، يقع التصادم بينهم وبين محيطهم، وهذا يقودهم إلى عدم التلاؤم، عدم الانسجام، عدم الاهتمام بالقانون السياسي، ومفاده ألاّ يتقدّم أحد منهم كثيرًا عن الركب الذي وراءه، وألاّ يتأخّر كثيرًا عن هذا الركب، فتكون الفجوة كبيرة، والمسافة شاسعة، بين القائد والمقود، بين مَن يريد لهم

الخير، وبينه هو الساعي إلى هذا الخير، والنتيجة، غالبًا، الخيبة، «ونحن الكبار في آمالهم/ صغار في خيبات آمالنا» ولأنّ هذا يقع غالبًا مع الأدباء والفنّانين، ومع الذين لم يشاركوا في أيّ عمل سياسي منهم خصوصًا، فإنّهم يصابون بالإحباط، باليأس، بالنزوع إلى ما هو غير عادي، غير مألوف، بالمعنى الضارّ للكلمتين، فيقدمون على إلحاق الأذى بأنفسهم، سواء بالتشرّد، أو الصمت، أو اللامبالاة، وكلّها، كما يخيّل إليهم، يحمل معنى الاحتجاج على الواقع، وهو كذلك فعلاً، إذا لم يتجاوزه إلى التهلكة، إلى المغامرة غير المفيدة، مثل الجنون، الانتحار، العدوان، الاستباحة، الإفراط في تناول الكحول، وتدريجيًّا إلى تناول المخدّرات، وما فيها من سموم تتلف العقول، وتاليًا الأجساد!

الذي حماك، يا فصيح، من الانحدار إلى جحيم هذه الموبقات، أنّك جئت من السياسة إلى الأدب، وليس العكس، وأنّك ناضلت بالجسد والقلم، وأنّ مشكلتك نفسيّة، ومن النوع الخطير، فأنت مصاب بالوسواس القهري، وقد انتبهت إليه، وصارعته طويلاً، ولاتزال

تصارعه، وفي صراعك الوحشيّ هذا، مع الذي يُحسّ ولا يُرى، استعنت بالحبوب المهدّئة، من جميع الصنوف والمصادر، فانتقلت من الوسواس إلى الإدمان، ومن علاماته كثرة التدخين، وسرعة الانفعال، وانتفاء الرضى، وخبث اللاشعور، والظمأ العاطفي، والبحث، دون جدوى، عن شيء لا تعرف ما هو، عبّرت عنه بقولك: «أنا نصف مجنون نصف عاقل، وأفضّل نصفي المجنون على نصفي العاقل» وفي هذا القول الجادّ، الذي لا يُحمل، من قبل الآخرين، على محمل الجدّ، بعض التنفيس عن الضغط الداخلي، للمشاعر المكبوتة، بقوّة الإرادة، لا بقوّة المعالجة، وصولاً إلى الشفاء، الذي تدرك، وبعمق، أنّه سراب، تشفق على يتمه تارة، وتشفق على نفسك من إغراء هذا اليتم طورًا!

أنت، يا فصيح، عاقل مجنون، وستبقى عاقلاً مجنونًا، وعذابك في هذه الدنيا، أنّك تتستّر على الاثنين، وما يولّدان من إرباك نفسي، يتجلّى في قولك: «إنّني لا أعرف ما أريد!» وفعلاً أنت لا تعرف ما تريد، مادمت تحافظ على التوازن بين تعقّلك وجنونك!

ولشدّ ما عانيت، يا فصيح، وأنت في العشرين بعد،

وكم قاسيت في مدينتك اللاذقيّة التي تحبّ، وقد كُتِب عليك، بدءًا، أن ترى إلى هذه المدينة، بعيني المدينة التي هاجرت منها، حيث كتب عليك، وأنت يافعًا ماتزال، أن تخوض النضال مبكرًا، وأن تسمع أزيز الرصاص، عن يمينك والشمال، وفوق رأسك والكتفين، وتشهد، بدهشة وهلع، سقوط زميلك في مدرسة «الرشديّة» الابتدائيّة، والدم نافورة في صدره، وهو يصرخ من الألم، طالبًا إنقاذه، متوسّلاً أن يرى أمّه، الذي هو وحيدها، فلا يجد من ينقذه، ولا تكتحل عيناه، قبل إطباقهما مرّة وإلى الأبد، برؤية وجه أمّه الأليف، الحدب، الراشح بالحنان، في قسماته والعيون!

كنت، يا فصيح، في السادسة عشرة بعد، لكنّك، على صغر سنّك، كنت تحبّ البحر، وتجيد السباحة، وتتفهّم بعض ما يقال عن العدالة، وعن الفقر والظلم، وعن بلاد المسكوب، وثورة الجياع، بقيادة لينين الذي قمت، مع الرفقة من أقرانك، بحفر اسمه على أشجار الكينا، في المنشيّة التي تجاور حيّ المستنقع في اسكندرونة، فجنّ جنون المستعمرين الفرنسيين، وبعثوا من يزيل الاسم المحفور، وألقوا القبض على المناضل

فايز الشعلة، بوشاية من خائن جبان، دلّهم على المخبأ الذي يتواجد فيه، في إحدى مغائر الجبل، وساقوا فائز إلى حلب، حيث عذّبوه ليعترف بأسماء الذين حفروا اسم لينين على أشجار الكينا، وبلغوا، في تعذيبه، حدّ إرغامه على الجلوس، فوق ساج تبرق النار فيه، لشدّة ما هو محمّى!

إلاّ أنّ الفرنسيين دهشوا، لأنّ الاسم الذي أزالوه عن أشجار الكينا، عاد إلى الظهور منقوشًا عليها، وعاد الفرنسيّون، في مدينة اسكندرونة، إلى ملاحقة المشتَبَه بهم، دون أن يفطنوا إلى أن من يقوم بذلك، هم فتيان يافعون، كنت، يا فصيح، في عدادهم، أو الأصحّ، في قيادتهم!

المؤامرة، عندما تنضج، تكون لها رائحة، مثلما اللّحم المشوي، في رائحته الفوّاحة، التي يتحلّب لها اللّعاب في فم الجائع، وقد شممنا رائحة المؤامرة في سلب لواء اسكندرونة، وإعطائه هديّة غير موفّقة، لضمان وقوف تركيا على الحياد، في الحرب العالميّة الثانية، التي لاحت بوادرها في أفق الحياة السياسيّة.

كان على العرب أن يتحرّكوا، أن يصغوا إلى نداءات إخوتهم العرب في لواء اسكندرونة، أن يقدّموا لهم المساعدة في كفاحهم ضدّ تتريك اللّواء، إلاّ أنّ المسؤولين العرب، في سورية والوطن العربي، لم يفعلوا، كما هي العادة، غير إتخامنا بالخطابات، وفيها من الرنين ما يتساوق ورنين الأجراس، في المناسبات، ولم يتخلّف عن ذلك الوطني الكبير، المرحوم فارس الخوري، الذي أعلن صادقًا: «أنّ لواء اسكندرونة سيبقى عربيًّا، وإلى الأبد!» لأنّه، وهو الذي عرف النضال، وسُجن مع زملائه في قلعة جزيرة أرواد، أخذ الوعود الفرنسيّة المعسولة على أنّها وعود شرف، غير مدرك أنّ الشرف في وعود المستعمرين، في «سفر هيهات منه يرجع»!

على كل حال فزنا، في اعتقال فارس الخوري ورفاقه في جزيرة أرواد، بأغنية جميلة، نردّدها حتى اليوم، وهي «يا ظلام السجن خيّم إنّنا نهوى الظلام/ ليس بعد السجن إلاّ فجور نور يتسامى» وضع كلماتها نجيب الريّس، ولحّنها فخري البارودي، وبعد هذا الفوز، الذي كان فاتحة للأناشيد الوطنيّة، كان على اللوائيين أن يناضلوا

بأنفسهم، وفي سياق هذا النضال، وكنموذج له، قيام زكي الأرسوزي بزيارة اسكندرونة، بدعوة من «عصبة العمل القومي» إلاّ أنّ الفرنسيين اعتقلوه، فهبّ الناس، وبينهم طلاّب المدارس، للتظاهر أمام السراي، صارخين «الحرِّيَّة لزكي الأرسوزي» وعندما حاولوا اقتحام السراي، لإنقاذه بالقوّة، أمطرهم الفرنسيّون بالرصاص، وسقط زميلي وصديقي عبد المسيح، الوحيد لأمّه قتيلاً إلى جانبي، وسقط عدد كبير من القتلى والجرحى في هذه المعركة الدمويّة!

منذ ذلك اليوم، عرفت يا فصيح، أنّ السياسة غير السباحة، وأنّ النضال ضدّ الفرنسيين المحتلّين، يتطلّب الأضاحي، وأنّ عليك أن تضحّي، وقد ضحّيت، صغيرًا في اسكندرونة، يافعًا في اللاذقيّة، رجلاً في دمشق، وتساق بقوّة الحديد، إلى السجون في كل هذه المدن، وتخرّجت من السجون بشهادة هي أمّ الشهادات: «الحقد المقدّس على المحتلّين وأذنابهم» وأنّ النضال علنيًّا يكون حينًا، وسرِّيًّا في أكثر الأحيان، وأنّ عليك، يا فصيح، أن تفهم أنّ «السياسة في القيادة» تكون، وأنّ العمل السياسي ليس لعبًا، ولا تسلية، فالعيش في زنزانة، غير

كتابة الأسماء على الأشجار، وتحمّل تعذيب الشرطة العسكريّة الفرنسيّة، غير الهتاف وأنت طليق «يسقط الاستعمار الفرنسي» والانخراط في العمل السرّي، له لذّته، حلاوته، وله أيضًا مرارته وعلقمه، ومقولة «حبّ الوطن من الإيمان» تصبح، في ترجمتها إلى واقع، مفاداة بالروح والمال، والنزهة وأنت حرّ، غير النزهة وأنت منقول في سيّارة السجن إلى المحكمة، وكما تختلف السجون، تختلف سيّاراتها، وأنت محشور بين المساجين فيها، وأنّ دفاع المحامين عنك مفيد، إلاّ أنّ دفاعك عن نفسك، بجرأة، وصلابة، وذكاء، أمام حكّام تحجّرت ضمائرهم في خرسانة القوانين، أجدى، وأكثر نفعًا، والمثال هو جورج ديمتروف، المناضل البلغاري، أمام المحاكم الهتلريّة، بتهمة حرق الريخستاغ، ودفاعه عن نفسه بألمعيّة، وجسارة، وثبات على المبدأ، حتى انتزاع براءته، ليبقى بعد ذلك مثالاً للمناضلين الشرفاء، جيلاً بعد جيل.

ولكن لماذا، يا فصيح، كل هذه الاستعراضات المملّة، وأنت لست بالمؤرّخ، أو كاتب مذكّرات؟ ستقول مكابرًا «هذا ما يسمّى الإحاطة بالموضوع من كل جوانبه!»

وتجيبك الحقيقة، التي لها طعم الحقيقة: «هذا لأنّك حكّاء، وكاتب الرواية حكّاء، يرشّ على حكاياته «بودرة الفن، إخفاءً لعيوبها، ومخادعة للقرّاء.. ماذا تقول؟»».

أقول:

يا بائع الصبر لا تشفق على الشاري

فدرهم الصبر يسوى ألف دينارِ

في علم النّفس، هناك نقطة غاية في الأهمِّيَّة، أطلقتُ عليها اسم «خبث اللاشعور» وقد جرى نقاش طويل، ولايزال، بيني وبين أطبّاء الأمراض العصبيّة والنفسيّة، حول هذا الخبث اللاشعوري، الذي ينكر بعضهم وجوده، لأنّ الكتب التي تبحث في سكولوجيا الإنسان، من فرويد إلى يونغ، تركّز على مبدأ الأنا العليا، وعلى الشعور واللاشعور، متجاهلة خبث اللاشعور، الذي قد يكون متضمّنًا في مقولات نفسيّة أخرى، وليس له استقلاليّة في ذاته!

لقد كتبت، حتى الآن، ما يزيد على أربع وثلاثين رواية، ودون علم النّفس، لا يمكن للروائي، أن يفهم، ويطوّر، مع نموّ السيّاق، ونموّ الشخصيّات، نموّ الحالة

النفسيّة، لكل شخصيّة في ذاتها، وفي فرادتها، على كثرة ما في كل رواية من شخوص أساسيّة وجانبيّة، ومَن يتعامل مع الرواية، في انبثاقها حدثًا، مبنيًّا على الواقع، وعلى التجربة والمعاناة في هذا الواقع، واستيقاظها بعد هجوع في قاع الذاكرة، يدرك أنّ عليه، بداية ونهاية، ألاّ يهمل الأشياء الصغيرة، التي تصبح في دلالتها، أشياء كبيرة، سواء في مساندتها لأبطال الرواية، أو في إغناء الخطّ الأساس، الذي تكون الخطوط الجانبيّة في خدمته إذا صحّ التعبير. وقد أبلغتني سيّدة تشتغل على رواياتي، في رسالتها لنيل الماجستر في الأدب، أنّ الدكتور عبدو عبّود نصحها قائلاً: «إذا أردت أن تفهمي بعمق، ما كتب فصيح في الروايات التي بين يديك، ادريسي علم النّفس أوّلاً».

وسواء كانت هذه النصيحة واقعة، أو متخيّلة، فإنّ الإلمام بنوازع النّفس البشريّة، وبطبائع الحيوان والنبات، تبقى ضروريّة، مطلوبة لذاتها كثقافة، ومطلوبة، بشكل أكبر وأعمق، في رسم الشخصيّات، ورصد تنوّعاتها النّفسيّة التي لا حصر لها، ومن بين هذه التنوّعات، خبث اللاشعور الذي كثيرًا ما يهمل، وخبث اللاشعور ليس بسيطًا كما نظنّ للوهلة الأولى، فهو يندسّ في

الشعور نفسه، ويستخفي في طيّاته، فنحن قد نساعد امرأة ما، قائلين في سرائرنا: هذه مساعدة لوجه الله الكريم، لكنّنا، في خبث اللاشعور، نساعدها لشيء آخر، يتكشّف فيما بعد، فإذا هو غاية، أو قصد، أو نازعة تقرُّبٍ لصيد ما، كما العنكبوت الذي ينسج شباكه لأمر يعرفه، هو اصطياد فريسته.

إنّ خبث اللاشعور يتجلّى عند الشيوخ، بأكثر ما يتجلّى عند الشباب، فالشابّ يفوز ببغيته، بأسرع، وأسهل، ممّا يفوز بها الشيخ، الذي تظلّ روحه طامحة إلى الجنس وغيره، بينما يخونه جسده في الجنس وغيره، وهذا ما أريد التركيز عليه، فالروح تبقى شابّة مهما تقدّم العمر بالإنسان، وفي شبابها الذي يبقى حتى النفس الأخير، تطمح الروح دائمًا إلى البقاء، وهذا مشروع جدًّا، مادام الطموح صنو الأمل، أو عينه، إلاّ أنّ الجسد يخون طموح الروح، ومن هنا حاجة هذا الجسد إلى المنشّطات، والمقوّيات، ومن هنا وعي مراكز البحوث الطبِّيّة، بما أسميته شباب الروح، وشيخوخة الجسد، حيث أقبلت على صنع العقار المقوّي، سواء على شكل حبوب أو غيرها، فانتعشت

آمال الشيوخ، في استعادة شباب الجسد، ووقف انهزامه أمام شباب الروح.

قد لا يكون أمير الشعراء أحمد شوقي، ملمًّا بمقولة شباب الروح وشيخوخة الجسد، لكنّه، من خلال تجربته الشخصيّة، أو رصد تجارب الشيوخ، واتته فكرة الاشتهاء إلى الأخرى، حين لم تكن الحبوب المقوّية قد اخترعت بعد، وتبدّى له الجمال الجسماني، في الأنثى وغيرها، وبدافع استشفافي من ذلك، وضع قصيدته التي مطلعها:

سلوا قلبي غداة سلا وتابا

لعلّ على الجمال له عتابا

ويسأل في الحوادث ذو صواب

فهل ترك الجمال له صوابا؟

وكنت إذا سألت القلب يومًا

تولّى الدمع عن قلبي الجوابا!

ولي بين الضلوع دم ولحم

هما الواهي الذي ثكل الشبابا

إنّني أتوقّف عند البيت الأخير، لما فيه من اعتراف صريح وصحيح، بأنّ الذي ثكل الشباب هما الدم واللحم، أي الجسد الذي خان شبابَ الروح، وأعرف، كما يعرف القارئ الكريم، حكايات وحكايات، عن شيوخ خانهم جسدهم، وظلّت روحهم شابّة، وبتحريض من هذه الروح، بكوا شبابهم الغارب، أو أقدموا على زيجات غير متكافئة، من حيث فارق السنّ، أو تحسّروا حسرة الكيّ بالنار، لأنّهم لا يستطيعون ترميم جسومهم، بالمقوّيات والمنشّطات، وبالحبوب الكفيلة، مع الخطر، باستعادة أجسامهم قوّتها ولو لوقت قصير، فلجؤوا إلى عزاء الصبابة، ولعلّ لفظة الصبابة كانت، بدءًا، هي التعبير عن هذا العزاء.

في كتاب «الأغاني» لأبي فرج الأصفهاني، كثير من الروايات والنكات عن الشيوخ الذين يتصابون، والتصابي، بمعنى البصبصة على النساء، مرذول غالبًا، وإلى يومنا هذا، وتصابي الرجل العجوز مذموم، ويُنظر إلى الشيخ المتصابي، نظرة فيها القدح، وفيها التشهير، وفيها الدعابة، أو النكتة البذيئة، وفي الأمثال الشعبيّة المتداولة، هذا القول: «شيئان أضرب من يخْ، شيخ

متصابي، وصبيّ تَمَشْيَخْ!» ورغم كل المذمّات، والأمثال، والنكات، فإنّ الشيوخ يتصابون، ويبصبصون، ويتحسّرون على قوّة الشباب، التي ثكلها الجسد، وبعضهم يغامر، حتى لو شكّلت مغامرته فضيحة، ليتزوّج، وهو في أرذل العمر، فتاة في أوّل العمر، دون أن يؤثّر فيه، أو يصدّه عن بغيته، لوم أو عذل، ورحم الله ابن زريق السمّاك الذي قال:

لا تعذليه فإنّ العذل يولعهُ

قد قلتِ حقًّا ولكن ليس يسمعهُ

جاوزت في لومه حدًّا أضرَّ به

من حيث قدرت أنّ اللوم ينفعه

وبعضهم يضع كلمة النصح، بدل كلمة اللّوم، والفارق هنا بسيط، لأنّ في النصح لومًا، أحيانًا كثيرة، والعكس صحيح.

تبقى مسألة بحاجة إلى إيضاح، وهي أنّ التصابي ينصبّ على العجائز من الرجال، بأكثر ممّا ينصبّ على العجائز من النساء، والسبب في ذلك أنّ المرأة تفقد رغبتها في الوصال في حدود الخمسين فما فوق، أمّا

الرجل فتبقى لديه هذه الرغبة إلى التسعين فما فوق!

إنّ النوم تحت الجسور، عندما لا يكون ثمّة مترو الأنفاق، أليف لديّ، وقد نمت، أنا المشرّد قهرًا، تحت هذه الجسور في سويسرا، قبل أن أتعرّف إلى مقصف روجيه، في شارع باريس الصغير، لكثرة ما فيه من خمّارات، وفي هذا المقصف، في جنيف، رهنت سترتي مقابل كأس من البيرة، وعبرت الحدود إلى فرنسا، دون جواز سفر، لأنّ السيّدة المحسنة، التي معي في السيّارة، غمزت رجل الأمن الفرنسي قائلة: «إنّه صديقي!» فأجابها وهو يبتسم «أوكي!».

وفي الطائرة، هاربًا من زوّار الفجر للمرّة الثانية، راحت المضيفة تذهب وتجيء، محاولة رؤية وجهي المستتر بجريدة الأومانيتيه، وعندما نفد صبرها، أزاحت الجريدة قائلة «أنت فلان، أليس كذلك؟» قلت عبوسًا «وماذا تريدين منّي!؟» أجابت «أنت مطلوب إلى غرفة القيادة، هيّا معي!» أطعتها مرغمًا، لأنّه لا مفرّ، وأنا بين أرض وسماء، وجواز السفر المزوّر، لا يعصم من الاعتقال، والإعادة، مقيّد اليدين، إلى البلد الذي هربت منه، أنا المواطن في الإقليم الشمالي!

في غرفة القيادة أجلسوني على لوح يُفتح ويُطوى، وبعد دقائق عشر، حسبتها دهرًا، سألني قائد الطائرة:

ـ ما رأيك بكأس من المشروب الأصفر الذهبي؟

أجبت يائسًا من الهرب:

ـ هذا من اللطف يا سيّدي، فأنا، بدل المشروب، كنت أحلم بكأس من الماء، لكنّ كرمكم فاق تصوّري!

جاء الأصفر المثلوج، من يد كاعب حسناء، فهان عليّ الاعتقال، وقلت في نفسي: «إذا لم يكن بدٌّ من السّجن، بعد الإعادة إلى دمشق، فالأفضل أن أدخله متعتعا، على مذهب أبي نوّاس. لذلك تذوّقت الكأس، بلذّة مبهمة، مفوّضًا أمري إلى الله، كالمحكوم بالإعدام، وأنشوطة الحبل في عنقه. وبعد الكأس الأولى، جاءت الكأس الثانية، «وهانت فما أبالي بالرزايا/ وما انتفعت يومًا بأن أبالي» متذكّرًا قول الأخطل الكبير «إذا ما علّني/ ثمّ علّني، صاحبي، ثلاث زجاجات لهنّ هدير/ خرجت أجرّ الذيل تيهًا/ كأنّني عليك، أميرَ المؤمنين، أميرُ!» وفي الكأس الثالثة، قال لي قائد الطائرة:

ـ أنت، يا أستاذ، ضيفنا اليوم!

قلت:

ـ مفهوم يا سيّدي، أنا ضيف غير عادي، وصيد غير عادي أيضًا!

قال:

ـ عن أيّ صيد تتحدّث؟ أقول لك أنت ضيفنا، وتقول لي أنا ضيف غير عادي وصيد غير عادي.. ماذا بك؟

قلت:

ـ الذي بي تعرفه جيّدًا، وإلاّ لماذا أنا في غرفة القيادة؟

ـ أنت في غرفة القيادة، لأنّ طبيب الطيران فلان، أوصاني بك خيرًا، وآمل أن أكون قد وفيت هذا الخير حقّه.

قلت ملهوفًا:

أوفيته وزدته وفاء.. وبودّي، إذا سمحت، أن أشرب كأسًا أخرى، في صحّتك، وصحّة الطائرة، وصحّة طاقم الطائرة، ومضيفات الطائرة، وركّابها جميعًا!

، شربنا على ذكر الحبيب مدامة، إلى أن هبطت الطائرة بسلام، وخرجت منها بسلام، وسرت، أنا المسافر بغير حقيبة، ضاحكًا من نصفي المجنون، رغم أنّي لم أكن مجنونًا هذه المرّة!

القصّة نافلة، أوردتها كي تعلموا أنّني سبحت في مياه الغربة طويلاً، واكتويت بنارها طويلاً، فمن بكّين إلى طوكيو، ومنها إلى نيويورك، ومن نيويورك إلى مكسيكو، أمّا لندن وباريس وبون وبودابست، فإنّها بعض ملاعبي، وبعض دمعي، كما في رواية «حمامة زرقاء في السحب» وعندما عُرض مسلسل «نهاية رجل شجاع» تساءل المشاهدون: «هل هذا هو المرفأ!؟» وأجبتهم: «هذا هو المرفأ، الذي عملت حمّالاً فيه» فأنا لا أكتب إلاّ ما عشته، ورأيته، وعانيته، وبعيد عن شرفي أن أحبّ امرأة، افتراضًا، لأكتب قصّة حبّ، أو أزور مصنعًا، لأكتب عن المصانع والعمّال، أو أتشرّد في الريف، لأكتب عن الفلاّحين وشقائهم، رجالاً ونساءً، فالحياة، بالنسبة إليّ، جديرة بأن تُعاش لذاتها، لا للكتابة عنها، وقد تعلّمت من زوجتي، مريانا دميان سمعان، هذه الأرجوزة «درت كتير، وعشْت كتير، وشفْت كتير

بزماني، وما فيَّ عَ بالي بعنْ، غير البيت الربّاني!».

لقد ولدت في اللاذقيّة، في بيت عتيق، مهلهل، على طرف سوق العنّابي، إلاّ أنّ المختار، الذي فوّضه والدي، وهو نصف سكران، بالكتابة على كيفه، دوّن في دفتره أنّني ولدت في السويديّة، مصبّ نهر العاصي، وأنّ تاريخ ميلادي يرقى إلى القرن التاسع عشر، ولشدّ ما عانيت في تصحيح بعض هذه الأخطاء، لا كلّها، ولشدّ ما ابتسمت، مشفقًا حدبا، على سوء الحظّ الذي رماني عند هذا المختار، الذي يكتب كلمة في دفتره، ويتحدّث بعشر عن فتوحاته الجنسيّة والبهلوانيّة، ضاحكًا، أو متضاحكًا، وحَزِنًا إذا لم تجاره في ضحكه الأبله!

إنّ الكتابة مهنة حزينة، فالورقة البيضاء أفعى بيضاء، وما تكتبه في اللّيل، قد تمزّقه في النهار، والمساءلة، في غير أوانها، مغيظة، فأنا أحبّ اللاذقيّة، ولا أرغب في الكلام على هذا الحبّ، لئلاّ أقتله، غير أنّ الصحافة لا ترحم، طالبة أن تتحدّث إليها عن حبّك هذا، وعن الفارق بين حبّك للمدينة، وحبّك للبحر الذي هو جار المدينة، وأيّ الحبّين هو الأكبر، والأعمق، والأنفذ، وأجيبهم: «نعم يا سادتي، أحبّ اللاذقيّة، وأحبّ

البحر، فالذين ولدوا في الموج، يؤثرون أن يكون المُقام والمثوى إلى جواره، إلاّ أنّ اللاذقيّة، التي كانت الهجرة من اسكندرونة إليها، غير اللاذقيّة التي هي اليوم و«زوّدينا بحسن وجهك مادام، فحسن الوجوه حال تحولُ، وما لنا كلّنا جوٍ يا رسول، أنا أهوى وقلبك المتبول!» ودائمًا كان الهوى، وكان الغدر فيه من الرسول الذي يغار ويغدر بالذي أرسله!

في سورية، وربما في الوطن العربي كلّه، ظاهرة إيجابيّة، تتبدّى في رغبة محمومة، من قبل بعض الفتيات والسيّدات، للكتابة الأدبيّة، في مختلف الأجناس الأدبيّة، وظهور أسمائهنّ، ومعها صورهنّ، وهذا أفضل، في الصحف والمجلاّت العربيّة. من جهتي أبارك هذه الظاهرة، وأشجّع عليها، في حدود الإمكان، ولأنّ جدليّة الأشياء حقيقة، فإنّ الظاهرة تحمل، في ذاتها، الإيجاب والسلب، على نحو واضح، فالموهوبات، من هؤلاء الأخوات، يطمحن إلى رفد نهر الإبداع، بما يبدعن: وغير الموهوبات، يعملن بالمثل القائل: «مَن سار على الدرب وصل» إلاّ أنّ الراغبات في الكتابة يستعجلن، وهذا مفهوم، فالرجال أيضًا

يرغبون في الكتابة، ويستعجلون النشر، كما كنت، أنا نفسي، خلال المراهقة والشباب، دون الانتباه إلى أمر مهمّ جدًّا، وهو امتلاك المعرفة، ومعها التجربة، وما فيها من معاناة قاسية أحيانًا.

لقد تعلّمت الكتابة من تحبير الرسائل للجيران، والعرائض للحكومة، وعندما حاولت الانتقال إلى مجال الأدب، كانت مشكلتي البحث عمّن يقرأ ما كتبت، وإبداء الرأي فيه، لذلك أتفهّم جيّدًا بحث الكاتبات المبتدآت، عن زميل متقدّم في المهنة، ليقرأ ما كتبن، ويعطي رأيًا فيه، وهذا ما يتعبني عندما يقع الخيار عليّ، لإبداء هذا الرأي، في قصيدة النثر الشائعة أوّلاً، وفي القصّة ثانيًا، وفي الرواية، وهنا البلاء الأعظم، ثالثًا، يضاف إليه طلب كتابة المقدّمات، أو كلمة الغلاف، إذا كان ثمّة تساهل، ويغدو الأمر صعبًا، بل مضنيًا، إذا استقبلت هذه الكاتبة أو تلك، لساعة أو ساعتين، ثم اعتذرت عن إعادة الكرّة، بسبب المشاغل وضيق الوقت.

إنّ السيّدة «س» كاتبة جيّدة، ولها قصص منشورة، وقد رحّبت بها، عندما زارتني، ترحيبًا لائقًا، واستمعت

إليها بإقبال وانتباه، لكنّها، بعد أن غادرتني، بكت، وبعثت إليّ برسالة أقطتف منها هذه المقاطع:

«مرّت عليّ أيّام وليال، وأنا لا أستطيع الكتابة إليك.. كنت حيرى ومندهشة ومتسائلة: ترى من أيّ لون يولد الورد الجميل؟ ومن أيّ دفء يُرسم الحلم؟ وكيف يموت الكلام عند تخومك؟ أم تراها الرهبة بين يديك؟ على أيّة حال، الندم على السكوت، خير من الندم على الكلام، أمّا الآن، وعلى هذا الورق، فقد بدأ صبري، ينوى الرعاب، فأحسّ بنفسي تتعبّأ بسلال الكلام، لأرمّم ما أزعجك منّي في المرّة السابقة، حين ضقت ذرعًا بي، وبصمت قلت:

ـ لن نتقابل ثانية!

سألتك ببراءة طفلة:

ـ لماذا يا أستاذ؟

قلت حازمًا:

ـ ليس لديّ الوقت!

وفعلاً لم يكن لديّ الوقت، وقد أجبت بصدق، دون

مَلَقٍ، دون لفّ أو دوران، فالوقت، في مسيل الزمن، يصبح حاضرًا ماضيًا في آن، ولابدّ، في مهنة الكتابة الحزينة، وكذلك «القذرة واللذيذة» حسب تعبير أرنست همنغواي، من اقتناص دقائق هذا الزمن، ومن اصطياد الكلمات خلالها، ومعالجة هذه الكلمات في الشأن الأدبي الذي أكون في صدده، والكلمات، كالغانيات، لا تؤاتي أحيانًا، تحرن، تتأبّى، تضيع، تطير، كالفراشات، من حولي، دون أن أستطيع القبض عليها، وهصرها، وجعلها مطواعة، على النحو الذي أريد، وفي هذا عذاب شديد، وفيه، أيضًا، نكهة مبهمة، مخدّرة، لا نبلغ معها حدّ الارتواء، فنبقى على ظمأ، أين منه ظمأ التيه في البيداء، حيث السراب إغراء، والتائه يضنيه احتواء هذا الإغراء، لأنّه التماع خلّبي، كما في لحظ امرأة، تشكّ معه في الوصل، وفي الهجر، فتبقى الدهر، ترجو وتتقي، فيما يسمّيه المتنبّي «أحلى الهوى!».

إذن بماذا أخطأت، مع السيّدة الكاتبة، عندما قلت لها، في نهاية اللقاء، إنّه لن يكون هناك لقاء آخر؟

لنعد إلى رسالة السيّدة النزقة، التي تواصل كلامها قائلة:

«ناسَ كلّي بحزن راح يتعنقد حولي، كأغصان لبلابة وقحة، ولفّني دوار بسيط، حاولت، معه، أن أتماسك.. نجحت في الدقيقة الأولى، وفي الثانية انسرح دمع عيني اليسرى، شجّعه على ذلك دخان السجائر الكثيف والمترامح في المكان، فراح يتساكب، قاتله الله، أقصد دمعي، الذي يخذلني، ويبلّغ رسالاتي!

«نمّ دمعي ليس يكتم شيئًا، ورأيت اللسان ذا كتمان» وهذا البيت من الشعر للعبّاس بن الأحنف، الذي صدق بما قال فيه».

تضيف السيّدة الكاتبة:

«نظرت إليّ تسألني بدهشة: هل أنت تبكين؟ نعم! أبكي، فأنا ما عهدت نفسي متطفّلة إلى درجة أن تطلب منّي مغادرة أبعادك.. أعرف نفسي، أنّني شديدة الإصغاء، فهل أضجرك صمتي؟ هل مللت إصغائي؟ لقد تمنّيت، في تلك اللّحظة أن أنطفئ، أمّحي من الوجود قبل أن تنطق بهذه الجملة: «لا وقت لديّ!» التي هزّتني واغتالتني، فأسعفني انحدار الدمع بتسكابه، «ولعلّ انحدار الدمع يعقب راحة» كما قال ذو الرمّة، ولكن في الجزء الأخير من اللقاء، أعدت لنفسي بعض صفائها وهدوئها!

«وحين ركبت السيّارة، وأخذت تلفّ بي، سرح الاحتقان وسال على خدّي، فأسرعت أخبّئ عيني بنظّارتي الغامقة، بينما السائق الخبيث يسترق النظر إليّ، ويتحرّق لمعرفة ما بي، وطبعًا لم أكن أبكي من جملتك الأولى «لن نلتقي ثانية!» إنّما لأشياء أخرى!

«عندما عدت إلى مدينتي الصغيرة، قرأت كتابك «كيف حملت القلم؟» توقّفت عند مقالة «شيء من الذكرى» قرأت عن ذلك الطفل الصغير الذي هو أنت، حين بكى لفراق أمّه الذاهبة إلى العمل، وعندما ازداد تعلّقه بها ضربته، فأصرّ على اللّحاق بها، فما كان منها إلاّ الجلوس على الرصيف، لتحتضنه، ويبكيان معًا، يبكيان قساوة الحياة، ومرارتها.. فهل نسيت كل ذلك!؟».

وفي الجواب على سيّدتي الكاتبة أقول: «لا! لم أنسَ، وإلاّ ما واصلت الكتابة، ولكن هل أستحقّ، أنا الذي أصغى إليك، كما يصغي لأمثالك من الكاتبات، كل هذا العتب، وكل هذا الاتهام بنسيان الماضي، يوم كنت «خيّالاً» أطارد الرغيف، وهو يهرب منّي لا أدري إلى أين!؟

إنّ ظاهرة إقبال النساء على الكتابة إيجابيّة، وفي جدليّتها تحمل السلب، وهذا السلب هو الذي يحمّلني ذنب موقف قلت فيه «ليس لديّ وقت!» فكان العتاب، وكان الدمع، وكان التذكير بفقري الأسود، يوم كنت طفلاً حافيًا، عاريًا، جائعًا!

ما أقسى أن أرجم من بيت أبي، ومن قبل سيّدة نزقة، متوتّرة، جالسة على أعصابها!

تحاول هذه الرواية معالجة قضيّة حسّاسة جدًّا، لم يسبق أن عالجتها أيّة رواية عربيّة أو أجنبيّة في حدود علمي، مع أنّ هذه القضيّة ذات أهمّيّة قصوى، تمسّ ملايين العائلات في الوطن العربي وحده، دون أن تأخذ في حسابها العالم الثالث، المنكوب بالفقر كما هي نكبة وطننا العربي.

وقد فكّرت، بموضوعيّة تامّة، في حدث هذه الرواية الذي تناولته، فذهلت حقًّا من غرابته، مع أنّه ليس غريبًا عن مجتمعنا، وأنّ لورانس شعلول هذه مدهشة في صراحتها، لسبب من أنّها تتحدّث عن والديها في الغرفة الوحيدة الفقيرة، وكيف كانا يمارسان الجنس كواجب

زوجي ودافع شبقيّ، دون أن تتحرّج في تسمية الأشياء تورية لها دلالتها الواضحة، ودون إغفال حتى التفاصيل الدقيقة بما كان يدور بين والديها وهي طفلة تنام لصق خاصرة أمّها، من كلام هو من طبيعة العمليّة الجنسيّة بين الذكر والأنثى.

إنّ الفقر والجهل والتقدّم في السنّ من قبل والدتها مبرّر تمامًا، ومبرّر تمامًا، من جهة أخرى، فعل والدها، الذي تدفعه غريزته الجنسيّة إلى الإصرار على نكح زوجته سواء نام الأولاد أم لا، وفجأة يتحوّل من راغب في إتمام ما بدأ حتى القذف، إلى الإمساك تمرّدًا على هذا الفقر المذلّ لرجولته كإنسان.

يبقى السؤال: ماذا يفعل الفقير، في الغرفة الوحيدة الفقيرة، وهو محكوم كإنسان، بفعل إنساني تتناهشه رغبة جنسيّة هي من طبيعة الأحياء، بشرًا وحيوانًا!؟

ربّما كانت العمليّة الجنسيّة في عدوانيّتها معروفة لدى الخاصّة، لكنّها ليست كذلك بالنسبة للعامّة، غير أنّ الطفلة لورانس تكره والدها لأنّه يعتدي على أمّها، تاركةً لنا كقرّاءٍ أن نعرف ما كنّا نعرفه مرّة أخرى، حسب ألبير

كامو، وهو أنّ العمليّة الجنسيّة كاختراق فعل عدواني، وأنّ الاستهانة بطفليّة الطفولة فيه جنف واضح، واليقظة الجنسيّة عند الأطفال أبكر ممّا نظنّ، بدليل أنّ لورانس، بعد سماعها ما دار بين والديها مرّت إصبعها إلى النقطة التي في أسفل بطنها.

ثمّة مسألة أخرى: لا عيب في أن نتعلّم من أبطال رواياتنا، إذا كانوا أبطالاً من لحم ودم حقًّا: فكاتب هذه السطور هو الذي خلق الطرّوسي بطل «الشراع والعاصفة» وهو الذي تعلّم منه، أي من بطل روايته «إنّ الحياة كفاح في البحر والبرّ» وكاتب هذه السطور هو الذي خلق لورانس شعلول، وهو الذي تعلّم منها أشياء كثيرة، فيها إضافات لعلم النّفس، المفترض في كل روائي أن يجدّ في طلابه عمره كلّه.

هذه ملاحظات بسيطة، وقد تكون نافلة، أُمسك بعدها عن «لزوم ما لا يلزم» تاركًا للنقّاد وللقرّاء أن يروا رأيا في لورانس شعلول أوّلاً، ونصف المجنون ثانيًا.. مع الوعد، إن بقيت فسحة في العمر، أن تكون قصّة لورانس هذه رواية متكاملة في العام المقبل.